وزارة الثقافة

مختارات من الشعر الروسي

ترجمة وتقديم د.عبدالله عيسى

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

برنامج الحفاظ على الرواية

مختارات من الشعر الروسي

إيفان بونين

آنا أخماتوفا

سيرغي يسينين

وأنطولوجيا الشعر المعاصر

ترجمة وتقديم د.عبدالله عيسى

ترجمة وتقديم: د.عبدالله عيسى

عنوان الكتاب: مختارات من الشعر الروسي

سنة الإصدار: 2019

منشورات: وزارة الثقافة

تدقيق ومراجعة: عصام الديك

تصميم وإخراج: فاطمة حسين

جميـع الحقـوق محفوظـة. لا يسـمح بإعـادة إصـدار هـذا الكتـاب، أو أي جـزء منـه، أو تخزينـه في نطـاق استعمال المعلومـات، أو نقلـه بـأي شـكل مـن الأشـكال، دون إذن مسـبق مـن النـاشر .

All rights are reserved

No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval

system or transmitted in any form or by any means, electronic,

mechanical, photocopying, recording or otherwise, without

prior permission of the publisher.

إهداء

إلى روح إبراهيــم الجــوادي:

كأنــك مــا زلــت، كــما أنــت،

تجمــل بصوتــك مــا ترجمــت

مــن الشــعر الــروسي.

إيفان بونين:

روح الأثر الإسلامي وظلّ جسد الشرق في شعره.

إيفان بونين:
روح الأثر الإسلامي وظلّ جسد الشرق في شعره.

أشعر في الفترة الأخيرة، وبشكل «مرعب، أنني شاعر. مغتبط وحزين في آن. إن هذا يملأ روحي، يمنحها موسيقى شعر غير محدود. أحسّ أن قوّة إبداعيّة» تخلق فيّ شيئاً ما حقيقياً

يعترف بونين الشاب الذي ولد في 22 أكتوبر 1870، بهذا، وبالضبط في عام 1891، بينما كانت دور النشر تحتفي بنتاجاته، فيما، ولم تمرعشر سنين حتى تطأ ثورات ثلاث روح روسيا، فيضطر للهرب إلى فرنسا، حيث يبقى حتى مماته في 8 ديسمبر 1953.

فقيراً كسنبلة ظل بونين الحائز على جائزة نوبل للآداب عام 1933 طيلة عمره الممتد 83 عاماً في منفاه. لقد صرخ يوماً: «إنني فقير حدّ أني لا أجرؤ على التفكير بهذا».

لكن بونين الذي قضى 43 عاماً من عمره في منفاه القسري ظلّ مطارداً بتفاصيل مكانه الأول/ الوطن، وممتلكاته في الذاكرة. يكتب: «حتى أقصى خلاياي أحسّ بجذوري مغروسة في روسيا، أحسّني رجع أسلافي. وأكثر من هذا أحس بعلاقة استثنائيّة مع حيواناتها الوحشيّة، ولهذا أحب الحياة بوحشيّة».

وعلى الرغم من اجتراحه لكتابة قصة خلاقة يندر أن تحاكى في القصّ الروسيّ بلغتها الموسيقيّة المدهشة بحيويّتها وعمقها وتكثيفها وتناولها الأشدّ إيغالاً لمفردات العوالم الداخليّة وأعماق الحياة التي

ظل مؤمناً بحقيقتها وأحقيّتها، إلا أنه ظلّ وفياً للشعر، معتزاً بلقب الشاعر: «أنا قبل كل شيء شاعر. بعد كل هذا قاص، وقاص فقط».

ويكاد يصعب مقارنة عالمه الشعريّ بآخر، ففي خلقه للأشياء والرؤى ظل قابضاً على حركيّة الكثافة والعمق الشفاف، والإمعان في الكشف عن مدارات شعريّة باكتشاف لغة جديدة باستعارات طازجة مفتوحة على صفاتها الخصوصيّة. لكنّ فكرة الإنسان الروسيّ الموطوء بقتامة عهد جديد طارئ على حياته ظلّت مشغلاً لأدوات الشاعر ولرؤاه لكسر الصورة الكتيمة التي يتقدّم بها عالمه بين الأمم.

معتمٌ كلّ شيء حواليكَ، يطمره الثلجُ

كيف الرياحُ رماديةٌ كالحة

في السديمِ الجليديّ؟

حولكَ

كيف بهذا الهدوء الذي مسّنا بالأسى

تتورّدُ تلك النوافذُ من خشباتِ البيوتِ التي لم تزلْ

بالرطوبةِ والبؤسِ، في يأسِها طافحة.

وفيما كان الروسيّ في رؤيا بونين يحمل بما لا يطاق صليبه الأبديّ تحت وطأة اليأس والبؤس المضنيين والعزلة الكتيمة، لكنّ الجمال الذي حبا الله روسيا به، الجمال الإلهيّ الخلّاق بطبيعة ملؤها الحب والانعتاق، ولا ريب أن ذاكرة بونين ما تزال تشتعل بها مذ

كان صبياً يرعى الماشية مع أبناء الفلاحين في القرى، لا بد سيكون صليباً جديداً كي ينفض الروسيّ المؤمن عن كاهله نير ثقافة بلا إله استقدموها وفرضوها عنوة على عالمه الروحيّ. يقول: أنا أحبّ اتساع الحياة. أحبّ الحياة، وأحبّ الحب».

مواسمُ، حسْراتُ روحٍ، وفيضُ سماءٍ مظلّلة بالغيومِ

ولا بدّ أن تعبرَ العتمةُ الشتويّةُ.

إن على الأرض ما لا يحدّ من الحبّ

أن تتعمّد بالضوء. ضوء الإله.

إن توحّد الروح بالمبدَع من الطبيعة بألوانها ورائحتها المفتوحة على ما تخبئ من آبار الفصول وذاكرتها، الولع الحسي الوديع بحبيبة ستجيء من الذاكرة، القدسيّة البشريّة التي تعلو على الأفكار المزيّفة الملحدة، جسّدت حساسيّة نصّه الشعريّ وسرّ رؤاه الإبداعيّة.

يكتب بونين المهدود بدروب آلام الغربة ولوعات الحنين إلى الوطن القصيّ: «لو كنت أجلس على مرمى مشهد الشمس الغاربة هناك لكنت سعيداً. الرؤية والتنفّس ما يهمني من الحياة. رؤية الورود وحدها تستحضر لي ذاتي بأبلغ آيات الغبطة».

لا طيور تُرى

ومهجورةٌ هذه الغابةُ، الغابةُ الآن موجعةٌ

ذبلتْ. ذبلَ الفِطرُ

فيما روائحهُ لا تزال مبلّلةً بالندى تعبر الأفقَ والأودية.

وطالمـا كان بونــين عــلى وصــل روحــيّ خصــوصيّ واســتثنائيّ بالــروح الإنســانيّ، مأخــوذاً باكتشــاف الســؤال الوجــوديَّ الأشــد قلقــاً للإنســانية فقــد كشــفت عوالمــه الشــعرية باقتباســاته وتضميناتــه لآيــات، أو اســتيحاءاته لمعــاني النــص الكريــم عــن علاقــة داخليّــة بــأسرار معرفتــه بــروح القــرآن الكريــم ورمــوز الديانــة الإســلاميّة، وتجليــات الســلالة الشرقيّة.

بشهوة ينتظر القلب الحياة

1-

منتصف الليل، أنسلّ وحدي من البيتِ، وحدي

جليديّةٌ خطواتي تدقّ على الأرضِ،

منغمرٌ بالنجومِ الشهيّاتِ روضُ السوادِ

وعلى الأسقفِ القشّ أبيض، أبيض

ومنتصفات الليالي راقدة بحدادِ.

يناير 1888

-2

ومع الأرغُنِ، الروح تحنّ

تغنّي الروحُ، وتنشجُ

تحتفلُ الروحُ، وتلعنُ.

ثمّ، بفيض الحزن الغلّاب، تنادي:

أيها الخيّرُ، يا المُشجِنُ!

كن رحيماً، حين تُنذرُ في الأرضِ،

بالأفئدة المنكسرة،

البشرِ المذلولين، المعدومين

أيها الخيّرُ، في الخير والشر!

عن المسيحِ، في لوعات الصلب.

أيها القدّيس، يا المغنّي!

أصواتٌ طاهرةٌ في القلب هنا.

هبْها لغة السرّ.

1889

وطن:

تحت سماءٍ رصاصيّةٍ قانية

كالحاً، يخمدُ اليومُ، هذا النهار الشتائيّ

لا حدودَ لغابِ الصنوبرِ

والقريةِ النائية.

والسرابُ الحليبيّ، اللازورديّ فقط

مثل حلمٍ حليمٍ

على ناصياتِ بوادي الثلوجِ

يخفّف بُعدي الكتيمَ، القصيّ

1896

وما زلتُ أذكرُ يا أمّ:

غرفة ُالنومِ، والشمعدانُ،

الدمى، والسريرُ الرؤومُ،

وصوتُكِ، ذاك الوديعُ، الرؤومُ

يصلّي:

الملاكُ الأمينُ يظلّلُ قلبك يا ولدي.

أذكرُ:

الحاضنةُ

تخلع الثوبَ عنّي، بهمسٍ يرقّ تعاتبني

بينما النومُ، ذاك اللذيذُ المحبّبُ،

عينانِ غائمتانِ

انحنتا بي على كتفيها.

ترسمينَ عليّ الصليب، وبالقبلاتِ

تذكّرينني أنه لا يزالُ معي

وتغوينني، مؤمنةً، بغبطةٍ تجيء

أذكرُ. أذكرُ صوتَكِ ذاك.

أذكرُ الليلَ، السريرَ الدافئ،

السراجُ في عتمةِ الزاويةِ،

وظلالِ سلاسلهِ..

أمْ تكوني الملاك؟

1911-1906

-1

أرسل لكِ روحي

عالياً، قمر ناضجٌ، في السماء

مطمئناً خرير الموج الناعس،

وكحقل ثلجي، ذهبيّ-

سناهُ يشعّ على البحرِ.

على البحرِ، بين السماواتِ والأرضِ، طافت

غيمةٌ، وفاضتْ على جنباتِ القمرِ.

بينما، على خلسةٍ، عانقتنا بظلّ رؤوفٍ.

والحقلُ الذهبيّ بعيدٌ

مطمورٌ بالغبشِ البلوريّ،

والريحُ، راعشةً بالعشبِ، تفحّ بدفءِ منتصفِ الليلِ.

موجةٌ ما، بالزفيرِ السعيدِ، تنهّدتْ

بالزفيرِ العميقِ. في سكينةِ النعاسِ -

بأيّما ثقةٍ. بأيّة لذةٍ

بي التحمتِ جميعكِ.

لكنّ بريقاً تهيّج في الأفق،

هجرت الظلالُ الجبالَ إلى الغابات

ونحن، ثانية، خامِدَين نجلس

فيما، من جديد، تشتعل الليلة كالنهار.

ينام البحر تحت جناح القمر الناصع

تلمع الأحجار الطحلبيّة الرطيبة.

آه، يا ليلة الحب!

أيلزمنا، حتى في السعادة، تنهيدة واحدة؟

1903

-2

أغنية:

على الانعتاقةِ فتّحتِ

نوّرتِ في حقلِ بتولا.

ولا تحدّقُ في الروحِ

العينانِ الوادعتانِ.

أذكرُ. أذكرُ الناعمَ

ذاك الكتّانَ الشفيفَ

هناك يزهرُ في أرضٍ ما بعيداً.

أذكرُ. أذكرُ الصافي

ذلك اللحظَ المشعّ

كلما يرفعُ الرموشَ

تستفيقُ الكائناتُ.

1909-1906

-3-

خرجَ الهلالُ المتأخّرُ، في الليلةِ المطمئنّةِ،
من أكماتِ الزيتونِ الأسود.
بابُ الشرفةِ صَرّ. سمعتُ:
رقيقٌ هذا الصريفُ!
في الخصامِ، لا نغفو معاً، في الخصامِ الأبلهِ،
فيما تنفسّت لنا الورودُ في عتمةِ الممرّ.
تلك الساعةُ الطيبةُ
أنا في السادسة عشر
وأنتِ في ربيعكِ السابع عشر.
أذكّرُ. أتذكّرُ
كيف شرّعتِ البابَ على الضوءِ القمريّ
وضممتِ المنديلَ الماطّخَ بالدموعِ تلك إلى الشفتينِ
ناشجةً ترتعشين، تهتِ عن دبّوس شعركِ.
بينما، من الرقّةِ والألمِ الغلابِ، ينحُلُ جسدي.
يا صديقي!
ليتنا نستردّ الليلةَ تلك.

1916/8/27

-4

هناك في الحقولِ، وفي المقبرة

ودُغلِ البتولا العتيقِ

لا قبورٌ، ولا.. لا عظامٌ -

مملكةُ الأحلامِ السعيدة.

الريحُ، تلك الصيفيّةُ، تهزّ اخضرارَ الغصونِ المديدة

ثم يطيرُ إليّ شعاع ابتسامكِ.

لا رخامُ الضريحِ، ولا الصلبُ.

لا زال فستانُكِ الجامعيّ

أمامي

ونظرتُكِ الساحرة.

-5

أنتِ وحدكِ؟

لستِ معي؟

في السنينِ البعيداتِ عن عمرنا

حيث كنتُ سوايَ؟

وفي عالمِ الأرضِ، في العالمِ الدائريّ

النهاراتُ هذي الفتيّةُ، هذي الأصيلةُ والغابرة.

من زمانٍ

أنا لم أعدْ...!

1917/9/24

-6

في الأقاصي تطوفين أنتِ،

وأنت تحبّين، أنتِ وتغتبطين

الآن، أينكِ؟ مأخوذةً

بأمواجِ خليجِ البسكايا الأخضرِ

بين الأبيضِ من أثوابكِ، والملْك.

ليس من عبثٍ ينسابُ فيك دمُ القرى

أيتها الجذلى، البسيطةُ، والطليقةُ..

بألقِ العينينِ الغامقتينِ بالأسودِ،

بتوردّكِ الملسوعِ بالشمسِ،

بالشفتينِ النحيلتينِ، الشفتينِ الرقيقتينِ

قولي للأميرِ سلاماً.

سلاماً يا أميرةُ.

ألثمُ كفيكِ الطفليّتين

لأجلِ ذاك الحبّ

الحب الذي ليس لأحدٍ سواه أن يوهنَ العظمَ منّي

9/1918

-7

حزنُ الرمشِ الأسودِ، الرمشِ الوهّاج بَريقُهُ

الدمعُ الألماسيّ، الدمعُ العصيّ، الدمعُ الجزيلُ.

وثانيةً، وهجُ عينيكِ، عينيكِ السماويتينِ

النشوانتينِ، الوهّابتين والوادعتينِ.

أذكرُ..

لكّننا لم نعدْ في العالمينَ

نحنُ

الفتيّانِ والمستبشرانِ.

من أين بزغتِ لي؟

لماذا تُبعثينَ في الحلمِ

ساطعةً، بفتنةٍ، على مهلٍ

تردّ إليّ الغبطةَ النشوى؟

ذاك اللقاءُ، اللقاءُ الشتويّ القصير

الموهوبُ من الله،

تلك الساعةُ العاصفةُ، من جديد؟

27/8/1922

-8

أيّها الطريقُ الطويلُ، الطريقُ البعيدُ

ماذا تخبّئ في وجهتِك؟

أيّما جهة، بالهدوءِ الكتيمِ، تُيمّمُ؟

هي تلك ذاتُها

العينانِ ذاتُهما،

والصدرُ الطازجُ ذاتُه

يعلو ويهبطُ بالأنفاسِ المطمئنّةِ التي ترقّ،

والياقة ذاتها، المستكينةُ تلك

على مهلٍ، تفرّ من الرقبةِ الغيداءِ،

فأُرمى برذاذ عطرٍ خفيفٍ.

شعرُها،

أنفاسُها.

وأحسّ

اللذّةَ البيضاءَ

بِعودتي المُشتهاة.

ماذا هناكَ في البعيدِ؟

بالحنينِ الغلّاب

لا أرى ما أمامكَ

أنظر إلى الوراءِ، وكفى.

15/9/1922

-9

بالطمأنينةِ ذاتِها،

بالهدوءِ المكينِ،

حيِيْتُ.

ورقُ الجدرانِ اصفرّ إذ شاخَ،

وبالحوّاري ابيضّ السقفُ الواطئُ،

والنوافذُ مالت ناحيةَ الشرق.

الصباحُ الشتائيّ.

وحدها الشمسُ تستفيقُ.

وكنتِ على فرحٍ:

الضوءُ الدافئ يرعى الحقولَ،

والموقدُ يعمّ بذؤاباتِه في الزاوية.

وعلى الرفّ، بالرتابةِ كلها، انتصبتْ كتبٌ ما،

الأوراقُ ترقدُ ضجرانةً على المكتبِ، تتضوّر.

وبالأريجِ الوهّاج

الزهورُ على الطاولة.

سعادةٌ يُرثى لها.

هكذا فكّرتِ.

18/1/1938

في الجهات البعيدات عن الوطن

-1

الكوثر:

«إنا أعطيناك الكوثر»

هنا ملكوتُ الأحلامِ، على مئاتِ الفِرساتِ العذراءِ
سِبخةُ الشطآنِ العارية.
الماءُ فيهنّ- الزمرّدُ السماويّ،
حريرُ الرمالِ أنصعُ من خبطِ أجنحةِ الثلج.
وحدهُ، في الحريرِ الرمليّ، الشيخُ الرماديّ
يستنبتُه اللهُ لقطعانِ الضأنِ الرُحّل.
وهنا السماواتُ، بالذي ليس يُبدعُ، زرقاءُ
الشمسُ فيهنّ - النارُ السعيرُ. سقرْ
وفي هذه الساعةِ اللهّابة، حيث السرابُ الصقيلُ
يندغمُ الكونُ في السُباتِ – الحلمُ الأوحدُ، الجليلُ
في البهاءِ الذي لا يُحدّ، خلفَ حافّةِ الأرضِ المحزونةِ
إلى الرياضِ، رياضِ الجنّةِ
يحملُ الروحَ.
وهناك ينسابُ، يصبّ، وراء السديمِ، هناكَ
نهرُ الأنهرِ، الكوثرُ اللازورديّ
الأرضُ جميعاً، القبائلُ والبلادُ طرّاً
يبشّر بالسكينةِ.
اصبرْ، صلِّ وآمنْ

1903

ليلة القدر

تنزّل الملائكة والروح فيها «قرآن»

ليلةُ القدرِ. الذرى التحمت. الذرى اندغمتْ.

وعالياً، عالياً في السمواتِ العلى نصبتْ عماماتِها.

والمؤذّن أنشدَ. تحمر ّ قطعُ الجليدِ

لكنْ من الأفاجيجِ والوهادِ تتنفّس عتمةٌ باردة.

ليلةُ القدرِ.

على منحدراتِ الجبالِ المعتماتِ تنسكبُ الغيومُ الكثّة.

أنشدَ المؤذّنُ. أمام النهرِ العظيمِ

يندلعُ، طافحاً بالرذاذِ، النهرُ الألماسيّ.

وجبريلُ لا يُرى. جبريلُ لا يُسمعُ

يطوف بالدنى المطمئّناتِ للسُبات.

سيَدي أيهَا المباركُ!

ظلّل الدربَ المقدّسَ، دربَ الحاجّ الجليل

وامنح الأرض ليلتكَ حباً وسلاماً.

1903

سرّ

ألف لام ميم «قرآن»

فَحّ على النصلِ بالشهقةِ الواحدة -

وفي سديمٍ لازورديّ خمدتْ زبانةُ خنجرِه السوريّ:

زخارفُ الذهبِ،

ونقوشُ الفولاذِ الصافية

بالذي أشدّ بهاءاً،

لمعتْ تحت السديمِ.

باسم ربّكَ،

باسم نبيّكَ

إقرأ. خادم السماواتِ والصخرةِ!

بصراخكِ المحمومِ:

قل: بأيّ الرموز مُزيّاً نصلُكَ؟

قال: رمزي - شانئي الأبتر

هو سرّ الأسرار: ألف، لام، ميم

ألف لام ميم؟

هذي العلاماتُ لا تُوقن ُ كصراطٍ في غيهبِ الحياةِ الآخرة

محمدٌ وارى سرّها الأبديّ

حليماً قال: «اصمتْ

لا ربّ في العالمين سوى الله»

لا حولَ إلا مشيئةَ أسرارِه القادرة

قال، تعلّقَ بحَدّيْ سيفٍ محدّبٍ

جبهته تحت العمامةِ الحريرِ

تفرّس «أتميدان»* القائظ

بطرْفِ طائرٍ جارحٍ وسْنان -

بالرموشِ الكُحليّة، في سكون،

ثانيةً، انحنى على السيفِ ذي الحدّين

1905

*** أتميدان: ساحة السلطان أحمد في إسطنبول**

حجر الكعبة الأسود

اليَشْبُ الأغلى كان، في زمنٍ ما،
البياضَ المحفوظَ كان،
كورودِ فراديسِ الجنّةِ مكللةً بالغيمِ
مثل الثلجِ الجبليّ يومَ شمسٍ وربيع.
روحُ جبريل، للشيخ «إبراهيم»، الجليل
ألفاهُ بين الرمالِ والصخرِ
والعارفون كلأوا بوّاباتِ الحرمِ،
حيث، بالصدر، يخفق الدُرِيّ، هو.
القرونُ قضتْ. من أقاصي الدنى طرّاً
يمّموا الصلواتِ إليه، ونهراً
اندلعوا في الحرمِ المقدّس، القصيّ
الله، يا الله !
خبتْ عطيّتُكَ المباركة
خبت من الدمعاتِ والحسراتِ الآدمية.

1905-1903

استانبول :

الكلابُ النحيلةُ، منسولةُ الشعرِ

بالعيون الكئيبةِ، العيونِ المنخورةِ -

سلالةُ أولئك القادمين من البراري

خلف الإستغاثاتِ الفضّاحة،

الإستغاثاتِ المعفّرة.

منصورةً،

بأقواسِ المجدِ وأبراجِ الغنى، كانت.

ثمّ

موطوءةً

بالرُحّلِ المسكونينَ بالضجيجِ الفتّاك.

قصورُكِ

وحدائقُكِ

أُخلِدتْ، مثل ليثٍ متخمٍ، إلى مخادعِ الإسترخاء.

لكنّ الأيامَ تطيرُ. أسرع من الطيورِ تطيرُ!

وفي الجبّاناتِ. في «سكوتاري»*

تسْودّ الغاباتُ،

وآلافُ الأضرحةِ، مثل العظامِ تماماً، تبيضّ،

في شجرِ السروِ.

وعلى الرُفاتِ المقدّس

رفات الأزمانِ هوى

على المدينةِ الماجدةِ، الوحشيّةِ الآن

وبالحنينِ الصحراويّ يعلو عواءُ الكلابِ

تحت رياحين القسطنطينيّةِ الخاويةِ على العروش.

وليبقَ «سيرال»*، بصمتِ نافورتِه.

مئاتُ القرى جفّتْ.

استانبول، استانبول

آخرُ معسكرٍ ميّتٍ

لآخرِ مخيّمِ رُحّل عظيم.

1905

للخيانة..

1-

على خيانة الوطنِ المسكينِ أهلكهُم

سيّدهم.

بعظامِ أجسادهم، بالكثيرِ من الجماجم

بذَرَ الحقولَ.

قامَ منهم فيهم رسولٌ

توسّل منه حياةً لهم

لكنّ الأرضَ لا تغفرُ خطيئةَ المُفسدين.

عنهم،

في أساطيرِ الشرق، علِمتُ أسطورتينِ-

الرحيمةُ: المبعوثون قضوا في المعاركِ،

والمعذّبةُ: إلى حافة القبر.

مثلما قال الرسول،

عاش الغلابونَ في الصحراءِ

في المضربِ الوحشيّ.

من رمّةِ الأجداث، يوم البعثِ، سوداء

أثوابُهم ووجوهُهم

تظلّ محنيّةً، حتى القبور، من الغيظِ الكتيمِ، على السحيقِ

سيماها اللون الرصاصيّ

البارِدِ،

الخامد.

1906-1903

2-

السفينةُ المهيبةُ،

السفينةُ العتيقةُ، الحمراءُ

آيبةً من «سيدني» حطّتْ في المرطم.

المرطم ُ يبيضّ، يزرقّ المرطمُ مستبشراً

قبّةُ السماء تشرقُ عاريةً من الغيم.

بالسكينةِ والدفءِ،

في الشمسِ،

في الماءِ الزمرديّ العابرِ،

مستنداً على الجنبِ الأيسرِ

الجبّارُ غفى. يغفو الماءُ الفوّاحُ

والحمّالون.

بينما يبيضّ الميناءُ المهجورُ.

والأرِينَةُ في الماءِ الشفيفِ تُرى

الأرينةُ الضيّقةُ

مطمورةً بالأصدافِ الصغيرةِ

تلك التي طلعَ الأخضرُ الصدئُ من زمنٍ عليها..

في «سمطرة»، أو «يافا»

في المحيطِ الجليلِ..

في قيظٍ، أو في هدأة

......

والولدُ الزنجيّ

في طربوشِه التركيّ المبقّعِ بالأوساخِ،

يتدلّى في البئرِ

ويطرّشُ الصهريجَ.

ومن الماءِ

على الصباغِ الأحمرِ الطازجِ،

تبزغُ الزخارفُ العربيّةُ لمّاعةً كالمرايا

تأتلقُ الصبغةُ تحت الكفّ السوداءِ

تُعمي الأعينَ.. والولدُ - القردُ

من الأحلامِ يغنّي.. لحنَ السودانِ المُنسابَ

يوقظُ، في استراحةِ الغرباءِ، لوعاتِ الحنينِ القهّار.

8/1906

جوردانو برونو:*

هو ذا عالَمُ الأحياءِ

فُلْكٌ بزعامة عَيْرٍ. فعمّروا، إذن، في الكونِ.

هذه الأرضُ - مأوى الخديعةِ والشرّ،

كهفُ النفاق.

فلتعيشوا في هذا الجمال المؤبّد!.

أنتِ، يا أمنّا الأرض!

أنت القريبةُ طرّاً من الروحِ،

أنت البعيدةُ.

ها إنني أتشهّى الذي يغبطُ الروحَ،

ما سوف يُضحِكُ من باطنِ القلب. يبقى

حنظلُ الكآبةِ، أبداً، في عشبةِ السعادةِ

يلسعُ بالمُرّ، تبقى

في الحسراتِ، أبداً، ثمّة لذّة غامضة».

هو ذا يسطو على عكّاز الجوّالِ:

غفرانكِ، يا قبابَ الصوامعِ الواجهة!.

تلك روحُه لا تعيش سوى في الغريبِ من الكائنات.

وحدهُ الآن: نفَسُ الإنعتاق.

. . . . . .

كلكُم عبيدٌ. قيصرُ دينكِم - وحشٌ:

ها أنذا أخلعُ عرش دينكِمُ الأعمى،

العرشَ المظلمَ.

ها أنذا أفتح بوّابةَ الوقتِ لكم

على المضيءِ، اللازورديّ

على لجّة القبّةِ السماويّةِ،

فيما أنتم في المعبدِ الوثنيّ المعمّدِ بالخرائب.

ليس ثمّة هاوية للمهاوي، ولا حافّة للحياةِ.

نحن الذين نبقى شمسَ «بتولومي»*

زوابع الأكوانِ، حشد كواكبٍ لا تعدّ

تنبسطُ أمامنا، أيتها الشعلة».

هو ذا. المتكبّرُ، هذا الجسورُ، على كل شيء

تطاولَ حتى على السمواتِ.

إنما الهدمُ توقٌ إلى الخَلقِ

وهو يدمّر حنّ إلى المعجزةِ -

معجزة الخلقِ، تلك الإلهيّة، في الكونِ

. . . . . .

تبرقُ العينان، والحلمُ سليطٌ

يحملُ الغبطةَ بيضاءَ إلى عالمٍ كشفٍ يُشتهى.

المُبتغى والجمالُ في الحقيقةِ وحدها

الذي يحتاجُ شيئاً أقوى من قلبِ الحياةِ كلّها

يطلبه.

أنتِ، يا فتاةُ!. بالوجهِ الملائكيِّ

المغنيّةُ على طنبوركِ الرنّانِ،

الطنبورِ القديمِ!.

كان يمكنُ أن أكون أباً لكَ،

أو صديقاً أكون..

ولكنني وحدي..

ليس في الأرضِ من ليس يُؤوى!.

. . . . . .

عالياً، عالياً، رفعت ُ لواءَ عشقي

وفي الأرضِ ثمة ما يستحقّ السعادةَ:

الرغبةُ مطمورةٌ بالجليدِ.

أما أنا

لكِ وحدكِ. مشتهايَ - صوفيا.

ومن جديد. هو ذا الجوّالُ. ثانيةً

يغرقُ في البعيدِ القصيّ

عينان تلمعان، ومنحسرٌ

وجهه. لن يدرك الأعداء

أن الربّ هو الضوء.

وهو يموتُ من أجله.

الكون لجّة الهاوية. كلّ ذرّةٍ فيه

تنسابُ بالربّ حياةً وجمالاً.

نحنُ

أحياءُ أو موتى، نحيا

بروحٍ كونيّةٍ واحدة.

. . . . . .

أنتِ، مع الطنبور!

أما تزال الحياةُ مأخوذةً بالفرحِ الوهّابِ

تحيا في مرايا أحلامِ لحظِكِ؟

وأنتِ، يا شمسُ!

يا أسرابَ نجومِ الليلةِ!

من يتنفّسُ السعادةَ كلّها

بالرضا كلّه.

والإنسانُ الصغيرُ، الموطوءُ

إلى أبدٍ لا يحدّ، بما يُقلقُ الروحَ

بالنظراتِ الطيّباتِ،

النظراتِ الباردات، الجليّاتِ

يمضي إلى النارِ.

الميّت في عصرِ العبوديّةِ

يتوّجُ بالخلودِ

بالحريّةِ الأبديّة

. . . . . .

وأنا أموتُ. أو هكذا أشتهي.

السيّافُ الذي بعثرَ رُفاتي، المُزدرى!

سلاماً، سلاماً للشمس!، للسيّاف!

هو ذا يذرّي فكرتي على الكونِ

1906

معبد الشمس

الأعمدة ُ الستّةُ، الأعمدةُ المذهّباتُ

المرمريّاتُ

الوهادُ الخضراءُ التي لا تنتهي

لبنانُ في الثلجِ

وسفحُ السماءِ اللازورديّ.

وأنا الذي رأيتُ النيلَ، والجبّارَ أبا الهول

رأيتُ الأهراماتِ:

أنتِ الأعلى، والأبهى أنت ِ

يا أطلالَ ما قبل الطوفان.

النسيجُ القيصريّ، النسيجُ البطرياركيّ

من الثلجِ، سلاسلُ الصخرِ الطويلةُ

تمتدّ

على لبنان، مثل زيّ دينيّ أرقش

. . . . . .

تحتها الروضُ، الحدائق الغنّاءُ،

والطازجُ الطيّبُ، كنسيمٍ جبليّ، يبعثُ الروحَ،

الخريرُ العجولُ للدُهنُجِ المائيّ

وتحتها، استراحةُ الرُحّلِ الأوّلينَ

وليكن أنها منسيةٌّ، عزلاءَ

الشمسُ تضيءُ رُواقَ الأعمدةِ،

الشمسُ الخالدة

وبواباتُها تفضي إلى العالمِ المُغبِطِ البواباتُ الواسعة..

بعلبك

1907-5-6

أزهار شيراز

غنّ يا عندليبُ!

يحنّون باللهفةِ الغلّابةِ،

في سرادقِ الميموزِ الموشّى

تشيبُ على الرموشِ الدموعُ الألماسُ

الكبيرةُ، الدموعُ الساجيةُ

تكتسي بالفِضيّ.

الحديقةُ هذه الليلةَ مثل رياضِ إرم

شاحبةٌ، ويانعةٌ بالعذوبةِ

مثل مخدعِ الجواري،

وعلى الشعابِ المُوشّاةِ يطلّ القمر.

غامضاً، يبيضّ حوارى الجدرانِ،

وهناك حيث يندلعُ الضوءُ

تلمعُ سحنتُه باخضرارٍ وشهوةٍ

مثل زمرّدِ عيونِ الأفاعي.

غنّ يا عندليبُ!. تتحسّرُ الشهواتُ

تصمتُ الزهورُ، ليس ثمّة ما يقال:

استغاثُتها اللذيذةُ - طيّبةُ الفوح،

ألماسُ الدموعِ - طاعتُها

1907-1906

وسلوى الموت موهوبةٌ من حارسِ الروحِ.

أيها الجوّالون!. أنتمْ

من العِفارِ انتصرتمْ

بين الأعداءِ، في البلادِ الغريبة كنتمْ.

هذه استراحتُكم -

السكينةُ والسلام

محترقةٌ ناصياتُ الجبالِ هذه الظهيرةَ

والرياحُ جفّفت مجرى «كيدرون».

فيما، بالعُصيّ رتّبتُم رُفات السلالةِ،

واقتناكُمُ البلدُ الحبيب.

حيث يثوي القياصرةُ، الأنبياءُ، والكهّانُ

راقدين في الغبطةِ التي تُشتهى.

كلّ من لم يقتلْ بعدُ في المنافي البعيدةِ

تجمعهُ يدُ الربّ الرحيمِ

على بلاطِ المنحدراتِ الوعرةِ -

الكتابُ المفتوحُ من سِفرِ التكوين.

الهوامش:

سكوتاري: أكبر بحيرة في البلقان بين الجبل الأسود وألبانيا

سيرال: سراي. قصر السلطان التركي.

جردانو برونو:* فيلسوف وفلكي إيطالي.

بتولومي: فلكي وموسيقي. عاش في الإسكندرية في العصر الروماني.

أنّا أخماتوفا:

في ذلك الوقت، ضِفتُ على الأرض

آنّا أخماتوفا:
في ذلك الوقت، ضِفتُ على الأرض

لم تكن حياة آنّا أخماتوفا في ضيعة «تسارسكوي سيلو» حتى ربيعها السادس عشر طارئة على ذاكرتها المبدعة. فهناك، تلمست روحها مكامن الجمال الذي أصبح فيما بعد متن طاقتها الإبداعية البكر، كما تروي في سيرتها «باختصار عن نفسي»: «الحدائق الخضراء الندية الباهرة، المراتع الممتدّة حيث كانت تأخذني مربّيتي، ميدان سباق الخيل حيث تحجل المهور الصغيرة، ومحطة القطارات القديمة، وأشياء أخرى تجلّت كلّها فيما بعد في مجموعة جنة تسارسكوي سيلو».

في ذلك المكان الذي ظلّ موحياً وقصيّاً في ملكاتها الإبداعية، تفتحّت مدارك آنا أخماتوفا على عبقرية الطبيعة بأسمائها وألوانها ومفرداتها المتعددة على الأوصاف، وعكفت لسبب لم تجد دونه سبيلاً على تعلّم القراءة متهجيّة، كما تذكر، كتابات الروسي العظيم ليف تولستوي، ودونما لأيٍ شرع لسانها آنذاك يلدغ بالفرنسيّة.

وإذ تتجوّل في سيرتها تذكر أنها صاغت بواكير أشعارها في الحادية عشر من عمرها، لكنها تعترف «لم يبدأ الشعر، بالنسبة لي، مع بوشكين وليرمنتوف، بل مع ديرجافين ونيكراسوف اللذين كانت أمي تحفظ جلّ شعرهما عن ظهر قلب».

كانت دراستها في المدرسة القيصرية متعثرة، وعلى الرغم من أن تحسناً ما قد شابها بشكل غير منتظر، ولم تكن قد عهدته من

قبل، إلا أن آنّا كانت تقدم على الدراسة دونما أية رغبة تتقدم بها إليها، كما تتذكّر.

وظلّت تدوّي في ذاكرتها ساعات افتراق والديها عام 1905، وتنوء بها دروب رحيلها مع أمها إلى الجنوب، إلا أن حنيناً عارماً بقي يعود بها إلى هناك، حيث الضيعة الأولى، وبدأت تكتب شعراً ينذر بالانطلاق، وإن بدا لها، كما تذكر، متعثراً. ولم تكن هتافات ثورة 1905 قد وصلت إلى منزل عائلتها المعزول عن العالم، حيث أقامت، إلا خرساء.

وبعد عصف الثورة بالمشهد الروسي بعامين أنهت أخماتوفا المدرسة في كييف، وانتسبت إلى كلية الحقوق فيها. تروي في سيرتها: «كنت سعيدة جداً، ونحن نتصفّح تاريخ الحقوق، وخاصة اللاتيني، لكن علاقتي بالكلية بردت تماماً حين شرعنا بدراسة مواد القانون. ثم تزوجت من نيقولاي غوميليوف، فسافرنا إلى باريس لشهر واحد، وحين عدنا إلى بيتربورغ أخذت بدراسة تاريخ الأدب».

لا بد أن زواج الشاعرة آنا أخماتوفا بالشاعر المبدع نيقولاي غوميليوف، صاحب الثقافة الواسعة، والإطلاع العميق على الحضارات الإنسانية، وخاصة الشرقية، بما فيها العربية والإسلامية، قد منحها طاقة إبداعية وحياتية ذات قابلية كبيرة، ففي هذه الآونة أنجزت شعراً مختلفاً، أخاذاً وعميقاً في آن، ضمته مجموعة «أمسية» (منها اخترنا قصيدة «جنازة »).

وفي أعقاب الأزمة التي ألمّت بالمدرسة الرمزية عام 1911، ابتعدت عنها أخماتوفا، أسوة بسواها من الشعراء الشباب، والتحقت بالمدرسة الأكميزية مع عدد منهم، بينما انضم آخرون إلى المدرسة المستقبلية.

وكان احتفاء النقد بمجموعة المساء التي صدرت بثلاثمائة نسخة فقط مفاجئاً وملفتاً عام 1912، العام نفسه الذي ولدت فيه ابنها ليف غوميليوف الذي اعتبر فيما بعد من أبرز المؤرخين المعاصرين في روسيا والعالم.

لكن النقاد والقراء لم يكونوا عادلين مع مجموعتها «السرب الأبيض» التي نشرتها عام 1917 (منها اخترنا «خلوة»، المدينة القاتمة»، «شُلّ عن الابتسام فمي»، «صلاة»، و «مباركاً بالربّ»)، مقارنة مع مجموعتها «سبّحات» (منها اخترنا «إلى م. لوزينسكي» و «إلى بلوك»)، فقد اعتقد الكثير منهم أن السرب الأبيض لم تحتفظ لذاتها بالمُنجَز الإبداعي الذي امتازت به سبّحات، فيما علّلت أخماتوفا سرّ هذا الأمر بما أوردته في سيرتها باختصار عن نفسي»: «لقد ظهرت مجموعة السرب الأبيض في ظروف مخيفة، كانت حركة المواصلات قد شُلّت تماماً، ولم يكن بالمقدور إرسالها إلى موسكو. كل نسخها بيعت في بيتربورغ. الجرائد أغلقت، والمجلّات أيضاً. ولهذا لم يكن لمجموعة السرب الأبيض ما كان لمجموعة سبّحات من الضجيج الإعلامي. الجوع والإنحطاط كانا يتفاقمان كل يوم».

لكنّ أخماتوفا أخلصت لعملية تطوير أدواتها الفنيّة، وطرح أسئلة إبداعية، مع كل مجموعة جديدة. ومع أنها ارتبطت بجماعة

الأكميزيـين بروابـط إبداعيـة وشـيجة، إلا أن حـدود عوالمهـا ظلّـت تتحـرك في مناخـات أكـثر اتسـاعاً وقابليّـة: فالتقديـس الجليـل للطبيعـة، وللـذات الإنسـانيّة، ولروحهـا التـي اتخذهـا الأكميزيـون مذهبـاً، ارتبـط بلغـة طيّعـة ابتعـدت عـن التعدديّـة التعبيريّـة التـي اعتمدهـا الرمزيّون الـروس. فاللغـة التـي هـي مـادة الصنعـة الإبداعيّـة هـي أسـاس الشـعر، وينبغـي أن تتحـرّر مـن ضبابيّتهـا، وتداعياتهـا التجريديّـة، وهـذا مـا تميـزت بـه أعـمال أخماتوفـا المتأخـرة.

وإذ تطـل أخماتوفـا في سـيرتها عـلى مسـيرتها الشـعرية تضيـف: «عملـت بعـد ثـورة أكتوبـر في مكتبـة كليّـة الزراعـة، وفي عـام 1921 خرجـت إلى النـور مجموعتـي الشـعرية «مزمـار» (منهـا اخترنـا «مثـل كنـسر فتـيّ»، «أبـداً»، «وانتظرتـه»، و«في الليـل»)، وفي عـام 1922، وأصـدرت مجموعـة «آنـا ديمـوني» (اخترنـا منهـا «كيـف لي أن أدبّ الصـوت»، «وليكـن أن يعصـف الأرغـن»، و «إلى كثيريـن»)، ومنـذ منتصـف العشرينـات تقريبـاً بـدأت أمـارس باهتـمام شـديد المعماريّـة القديمـة لمدينـة بيتربـورغ، وقـراءة حيـاة وإبـداع بوشـكين، لكـن لم تنـشر أشـعاري الجديـدة، في تلـك الفـترة، بينـما أعيـد نـشر القديـم منهـا».

لا شـك أن الصلـة الفنيـة لعوالمهـا مـع الـتراث الشـعريّ الـروسيّ، خاصـة مـع إنجـازات الكسـندر بوشـكين، أخـذت تتأصّـل في ذلـك الوقـت، عـلى الرغـم مـن اقـتراب عالمهـا مـن إبداعـات الكسـندر بلـوك، فأصـدرت مجموعـات شـعرية شـكّلت إضافـة فنيّـة كبـيرة للشـعر الـروسي، مثـل مجموعـة «الـيراع» (منهـا اخترنـا «الشـاعر»، «بالمراتـع يفـوح العسـل الـبريّ»، صـور الكائـن»)، ثـم مجموعـة «الكتـاب السـابع» (منها اخترنـا

«مـوت»، «وكـما في الألبـوم»، وكذلـك مجموعـة «وِتـر» (اخترنـا منهـا «إلى ذكـرى بولغاكـوف»، ومـن ملاحمهـا «موسـيقى قـدّاس»، إضافـة إلى «مختـارات»، و»عـدو الزمـن».

وظلــت أخماتوفــا التــي ولــدت في 23 حزيــران 1889 حتــى النفــس الأخــير الــذي داهمهــا في الخامــس مــن مــارس عــام 1966 مخلصــة للشـعر، بالاشـتغال في مختـبره الإبداعـيّ، واكتشـاف الإيقاعـات الخلاقّـة فيـه، لتصبـح مـن أبـرز شـعراء روسـيا والعـالم. هكـذا تختتـم الشـاعرة سـيرتها: «لم أتوقـف عـن كتابـة الشـعر، أجـد في الشـعر علاقتـي مـع الوقـت، مـع الحيـاة الجديـدة لشـعبي. عندمـا كتبـت أشـعاري عشـت تلـك الإيقاعـات التـي عُزفـت في تاريـخ وطنـي البطـوليّ. أشـهد أني سـعيدة، كـوني عشـت في هـذه السـنوات، ورأيـت تلـك الوقائـع التـي لا مثيل لها».

جنازة:

ألوّبُ عن بقعةٍ ما لقبرٍ

أترى أيّها المسكونة أكثرَ بالضوءِ؟

كمْ رطِبٌ أديمُ الأرض،

ومكتئباتٌ على حوافِ البحرِ صدورُ الصخرِ.

وهْيَ المجبولةُ دوماً على الطمأنينةِ،

المولعةُ بالشعاعِ الوهّاج.

سوف أبني على قبرِها صومعةً

تكون لنا، لسنينٍ طوال، مثل بيتٍ.

ويكون ثمّة معبرٌ بين الشبابيكِ

في جوفهِ نوقدُ السراجَ

فيغدو كقلبٍ مُعتمٍ

فيه حمراءَ تندلعُ النار.

......

وهْيَ تهذي، أتعْلمُ، من هوَسٍ

بأشياء أخرى، بالسماويّ القصيّ،

لكنّه، لائماً، لقّن الراهبُ:

ليست لكم. ليستِ الجنّةُ للآثمين.

آنذاك، مُبيضّةً من الوجعِ العَتِيّ،

رغتْ: «سوف أمضي معك».

ها نحنُ وحيدانِ، طليقانِ

وعند أقدامِنا تضطربُ الأمواجُ الزرقاء.

1911

إلى م. لوزينسكي

النهارُ الكهرمانيّ الكتيمُ يطولُ إلى غيرِ خاتمةٍ

كحزنٍ مستحيلٍ، كانتظارٍ بلا محضِ جدوى.

والأيّلُ، ثانيةً، في المتحفِ الوحشيّ

بصوتِه الفضيّ، يحنّ إلى الشروقِ الشماليّ.

وأنا التي آمنتُ

ثمّةَ ثلجٌ أشدّ صقيعاً

لأولئك الفقراء جُرنُ المعموديّةِ الأزرق، والمرضى

والمزالقُ الصغيرةُ للسباقاتِ الطويلةِ

تحت رنينِ أجراسِ القريةِ النائية.

1912

إلى ألكسندر بلوك (1)

ضائفةً حللتُ على الشاعرِ

منتصفَ اليوم، تماماً، الأحد.

السكونُ الكهلُ يقطنُ غرفتهُ

وخلفَ الشبابيكِ ينمو الجليد

وشمسٌ قرمزيّةٌ

على الضبابِ الأزرقِ المنعوثِ.

يا للصاحبِ الصموت

بما ينجلي يتقرّاني !

هكذا عيناهُ

محالٌ على أحدٍ أن يمرّ، كما يشتهي بهما، بنعمةِ النسيانِ،

ومن وجسٍ، يهيء لي، ألا أرنو فيهما

ذاكَ أجدى، وفيما حولهما.

فيما يظلّ محفوظاً في لوحِ ذاكرتي كلامي معه

منتصفَ اليومِ الضبابيّ ذاك، الأحدْ

في البيتِ الرماديّ، العالي

عند مصبّاتِ «النيفا»(2) في البحرِ

كانون الثاني 1914.

خلوة

مرميّة فيّ، هكذا، أحجارٌ لا تحدّ،

ومهملةٌ

حتى لم يعدْ يمسسني خوفٌ عليّ من سواها.

والبرجُ المُشادُ، عالياً، بين البروجِ العالياتِ

صار شِركاً. شكراً لبانيهِ

دعِ اكتئاباتها، وانكساراتها تمرّ

من قبلُ، من هناكَ، كُنتُ أرى مطلعَ الفجرِ

وهنا يحتفلُ الشعاعُ الأخيرُ

وعادةً، تهبّ من شبابيكِ غرفتي، نسائمُ البحارِ الشماليّةُ،

وتأكل الحماماتُ من بين يديّ حبوبَ القمحِ.

فيما، هناكَ صفحةٌ لم تكتملْ بعدُ

سوف تكتبها، بطمأنينةٍ وبساطةٍ إلهيةٍ،

يدُ الوحيِ السمراء.

1914

-1

المدينةُ القائمةُ عند البحرِ الواجمِ

جذلى، كانت بأرجوحتي،

وبسريريَ الزوجيّ المُحتفى

وقد رفعتْ فوقه ملائكتُكَ الفتيّةُ ضفائِرَ الزهورِ

بحبّي المريرِ

المدينةُ معشوقتي.

معبدُ ابتهالاتي

كُنتُ هادئةً، بالصرامةِ ذاتها، سرابيّةً

حين تمثّل لي، للمرةِ الأولى، عروسي

مرشداً روحي لصراطٍ من الضوءِ

ثم قادني، مثل عمياءَ، وحيي.

1914

-2

وشُلّ عن الإبتسامِ فمي

وبالبردِ ريحُ الشمالِ تعضّ على شفتيّ

وبي أملٌ ما أقلّ

وأغنيةٌ أكثرُ..

الآن. سوف أعرّضُها للشماتةِ والدنَسِ

هاذيةً

إنّ بي أملاً لا يُطاقُ

إذا مسّ روحي عن الحبّ شيء من خرَسِ

1915

صلاة:

هبني سنيّ العليلِ المريراتِ،

الأرقَ المستبيحَ،

الحريقَ الداخليّ، ولوعةَ الآهات.

وخذِ الطفلَ، خذهُ، والصديقَ

عطيّتَكَ السريّةَ المشتهاةَ

هذا دُعائي خلفَ صلاتكَ الكنائسيّة،

وفي أثر الأيامِ المثقلاتِ بالبلوى هذه كلّها، أدعو

كي تبقى المُزنةُ في أعالي روسيا القاتمة

غيمةً في مجدِ الشعاع.

1915

-1

مبارَكاً بالربّ، الشعاعُ الأوّل

سحّ على الوجهِ الحبيبِ

الذي مأخوذاً بالنعاسِ مسّهُ الشحوبُ القليلُ

لكنه، بأقصى السكينةِ تلكَ، غفا.

يُخالُ، للقبلةِ دفءُ الشعاعِ السماويّ

وكما لو أن شفتيّ، منذ دهرٍ، لم تطأ شفتين

بهذي النداوةِ، ولم تمسّ كتفاً أسمر.

والآن، أرواحٌ متوفاةٌ،

في سِفري الذي لا عزاءَ له

أحثّ إليه الأغاني

وأهدهدُ الشعاعَ الصباحيّ

1916

إلى م. لوزينسكي

يطير، لا يزال، في الطريقِ الطويلِ
كلامُ الحبّ، والانعتاق.
أنا التي في رعشِ ما قبل الغناءِ
أشدّ برودةً من جسدِ الصقيع فمي.
وقريباً،
هناك، حيث يلتصقُ البتولا الشفيفُ بالشبابيكِ
سوف يفحّ اليباسُ
وتنعقدُ الورودُ على الأكاليلِ اليانعةِ،
ثمّ تقرعُ الأصواتُ الرقيقةُ، وعمّا قليلٍ
الضوءُ سخيّ حدّ الجنونِ كنبيذ ساخنٍ قانٍ
وها هي الريحُ المعطّرةُ الدافئة وهجُ حواسي.

1916

-1

مثل نسرٍ فتيّ بعينين سوداوينِ

بتوحّدٍ سريّ مع الأعالي،

مضيتُ بخفّةِ الروحِ

كما لو أني في حديقةِ زهورِ ما قبل الخريفِ

هناك

الورودُ الأخيرةُ،

والهلالُ الشفيفُ تهاوى

على الغيومِ الشهباءِ الغزيرة.

1917

-2

أبداً

أسمعُ صفيرَ صوتٍ حزينٍ

وأحتفي بغَرْمِ الصيفِ الجليلِ،

بينـما، بأزيـزِ الثعابـينِ، يجتـثّ منجـلٌ السـنبلةَ الملتصقـةَ، معتصمةً، بأخواتها.

فتُنثرُ في الريح، كالراياتِ في الأعيادِ،

خلفَ أذيالِ الحاصداتِ المكيناتِ.

والآن، ها هو ذا رنينُ الأجراسِ المغتبطةِ

يعبرُ الرموشَ المغبرّة للنظرةِ الطويلةِ.

لستُ على انتظارِ مغازلةٍ،

ولا أنتظر الزلفَ المحبّبَ

حتى في هاجسِ عتمةٍ لا حدّ لها، ولا مفرّ منها.

فقط

تعالَ، وانظر إلى الجنّةِ

حيث كنّا مغتبطَينَ، وبريئَين

1917

-3

وانتظرتُهُ، عبثاً، كلّ هذي السنين
كما لو أنّها غفوة مرّت بي.
لكنَ الضوءَ الذي ليس يُطفأ
ثلاثَ سنين في السبت المقدّسِ، توهّجَ،
صوتي تجرّحَ،
وساكناً بابتسامتِه ظلّ عروسي منتصباً أمامي.
وعلى مهَلٍ، خلف الشبابيكِ
مضى مليئًا بالشموع. آهِ، أيها المساءُ الورِع!
خفيفاً، قرقعَ جليدُ نيسانَ الرقيق
ودوّى فوق الحشودِ رنينُ النواقيسِ
مثل عزاءاتٍ سامية،
وترنّحتِ النارُ في الريحِ السوداء.
وكما لو أنّي، في انبلاجِ السديمِ، رأيتُ
النرجساتِ البيض على الطاولة،
النبيذَ الأحمرَ، بارداً، في الكأسِ.
يدي المبقّعةُ بالشمعِ
ارتعشتْ، وهي تحتضنُ القبلةَ،
فغنّى دمي: أيتها الجذلى! ابتهلي.

1916

في الليل:

-1

بالكادِ حيّاً، يقف الهلالُ في السماء

بين السحبِ الصغيرةِ المنسابةِ،

والساعةُ العابسةُ عند القصرِ تنظرُ

بضيقٍ، إلى عقاربِ البرج.

تعودُ إلى البيتِ الزوجةُ المسكونةُ بالخطيئةِ

بوجهها الشاردِ، المتيبّس

بينما تلهبُ الهواجسُ المتوقدةُ، الطاهرةَ

في أحضانِ الأحلامِ المضطربة.

مالي، ولها؟ اليومُ السابعُ ولّى

زافراً صعداءَهُ، قلتُ

،بالكلامِ البسيطِ، للكونِ كلّه.

لكنّ الهواءَ، هناكَ، خنّاقٌ

تسلّلتُ إلى الروضِ

ثم رنوتُ إلى النجومِ

وتحسّستُ القيثارة.

1918

-2

كيف لي أن أدبّ الصوتَ
من حبّكَ الغامضِ باللوعاتِ.
صيّرني شاحبةً مثل اصفرارٍ متعجّلٍ،
أوهنَ العظمَ مني،
بالكادِ أقودُ قدميّ.
لا تشدو الأغاني الجديدةِ.
أتخادعُ الأغنياتُ طويلاً، والأظافرُ
الهائجاتُ تنهشُ صدري.
ولكي يطفحَ الدمُ من حنجرتي،
ويطفّ، سريعاً، على السريرِ،
وينسلّ الموتُ من القلبِ،
سأبقى إلى أبدٍ طافحةً بسُكري اللعين.

1918

-3

وليكن،

أن يعصفَ الأرغنُ، ثانيةً،

كأولِ رعدِ الربيعِ:

من وراء كتِفَيْ عروسِك، عيناىَ

نصف الموصودتينِ، تحنوانِ عليكَ.

وداعاً، وداعاً، واثملْ بالسعادةِ

يا صديقي الأَلوف، أردّ إليكَ عهدكَ اللذيذَ.

وإياكَ، إيّاكَ أن تقصّ على صديقتكَ الولهانةِ

شيئاً من هذياني الفذّ،

حتى ينفذَ، بِسُمّهِ الكاوي، فيما بعدُ

توحّدكما المبروكَ السعيد.

وأنا غاديةٌ لأحظى بالروضِ المُعجَزِ

حيثُ حفيفُ الأعشابِ،

ونداءاتُ آلهةِ الشعر.

1921

-4

إلى كثيرين

أنا صوتكمْ، وذؤاباتُ أنفاسكمْ

وملامحكمْ في المرايا،

وما فاضَ من رعَشاتٍ لأجنحةٍ فائضاتٍ سدىً،

وسأبقى إلى أبدٍ معكم.

فحقّاً،

لماذا إذن نهِمِينَ تحبّونني أن أظلّ مخضّبةً بالخطايا،

وبالسَقَمِ المُرّ. حقّاً

لماذا، بلا محضِ انتباهٍ، تخصّونني دون غيري بأجملِ أبنائكمْ،

ولماذا، إذنْ، أبداً ما سألتموني عنه؟. حقاً

وكنتمْ كمدخنةٍ، بالمديحِ كثيرِ الدخانِ، تلفّون بيتي

المهدّم، مثلي.

أبداً، تقول الأحاديثُ، أحاديثكمْ:

ليس لزاماً توحدّنا بالذي اعتصمتْ به روحان،

لا ينبغي أن نحبّ بكلّ مزايا الجنونِ.

وكما يشتهي الظلّ أن يتحرّر من جسَدٍ،

أو كما يشتهي جسدٌ أن يفارقَ روحاً

أشتهي الآن منسيّةً أن أكون.

1922

الشاعر

باريس باسترناك (2):

-1

هو ذا، ذاتُهُ أشبه بعيني مُهرٍ، يرمُقُ

من زاويتَي لحظِهِ، يرنو، يرى، يُدركُ،

وبالألماسِ المُذابِ

تضاءُ الغدائرُ، والجليدُ ينوءُ.

وفي الغيهبِ الليلكيّ ترقدُ الأشياءُ وراء البيوتِ،

الأرصفةُ الوحيدةُ، قُرَمُ الأشجارِ،

الأوراقُ، والسحابةُ،

صفيرُ الحافلاتِ، خشخشاتُ قشورِ البطّيخ،

واليدُ الوجلى في روائحِ «لايكا»(4).

كموجٍ مضطربٍ على شاطئٍ يلطُمُ، أو يدوّي

يرعدُ، أو يزبِدُ، ثم يهدأ، في خلسةٍ عنه.

ذاكَ يعني أنهُ يتحسّسُ ممرّاً بين الصنوبرِ،

بحذاقةِ الخوفِ،

لكي لا يجفلَ أفقُ الحلُمِ المُرهف.

......

أو ذاك يعني أنّهُ يعدّ الحَبّ
في سنابلَ فارغةٍ،
أو ذاك يعني أنه عادَ للتوّ
إلى موقدِ الطبخِ الأسودِ الملعونِ
من جنازةٍ ما.
ومن جديدٍ، يلدغُ الفتُورُ الموسكوفيّ،
والأجراسُ البعيدةُ المميتةُ تجلجلُ في الأقاصي..
من تاهَ على بُعْدِ خطوتينِ من البيتِ
أين الثلجُ على حزامِ الأرضِ،
هل انتهى كلّ شيء؟.
. . . . . .
ولهذا كلّه أشبّهُ الدخان «بلاوكون»(5)،
والآسُ تشبّبَ بالمقابرِ.
ولهذا كلّه يطفحُ، بالرنينِ المنذِرِ، العالمُ كلّه
في المسافةِ البكرِ لأصداءِ السطور.
وهو المُجازى بطفولةٍ لا تنتهي
به نوّرتِ العطايا، وجهاتُ الانتباه،
وكانتِ الأرضُ كلّها تِركتَهُ
فتقاسمها مع المخلوقاتِ جميعاً.

19 كانون ثاني 1936

-2

بالمراتعِ يفوح العسلُ البريّ،

والغبارُ بالشعاعِ المرسومِ بالضوءِ،

وبالبنفسجِ يعبقُ الفمُ البكرُ،

فيما بالفراغ يلمعُ الذهبُ.

وبالماءِ تتضوّع الخزامى

والحبّ بالتفّاح.

لكنّنا، منذ بدءِ الخلقِ، نرى

أن الدم لا يفحّ إلا بالدم.

وسدىً، غسل نائب روما يديه

في أعين الشعبِ

وسط صيحاتِ الرعاع المشؤومةِ.

عبثاً، مسحتِ الملكة الأسكوتلنديّة

براحتيها الضيّقتينِ، الرذاذ الأحمر

في القصر المخنوق بالظلمات.

1933
1940

-3

صورُ الكائنِ، حينَ يموتُ، تتبدّلُ،

ترنو بعينينِ أخريين، وتحوكُ

شفتاهُ ابتسامةً أخرى.

ذاك الذي أرى كلّما عدتُ من جنازةِ شاعرٍ.

وكثيراً ما تيقّنتُ.

قد ثبُتتْ رؤيايَ.

1940

موت:

-1

على حافّةِ شيء ما كُنتُ

شيء ليس له اسماً حقاً..

سلطانُ النومِ الغلّاب

الهاربُ منكَ.

وواقفة على مشارفِ شيء ما

مشارفُ كلٌّ واردُها، لكن بأوزارِهِ..

لي حجرةٌ على هذه السفينةِ

الريحُ على الأشرعة،

ولحظةُ الوداعِ الرهيبةُ

للوطنِ الأمّ

1942

-3

-2-

والغرفةُ لي، حيثُ أبتلى

آخر مرّةٍ

على هذه الأرض، يطأني المرضُ الأعمى.

كأنّما يتسنّدُ على سيقانِ الحورِ البيضاء

العالياتِ في الممرّ.

إنّه الأولُ

الأعلى شأناً،

كم ينضجُ، في حكمهِ الجليلِ، وينعمُ بالغبطةِ

الأوّل،

الأعلى في شأنه،

عندما يعبرُ الشبّاكَ الأغبرَ

تحلّقُ روحي لتحتضنَ الشمسَ،

وتُهلكُ النومَ المميت.

كانون ثاني 1944. طشقند

-3

عندما يستلقي البدرُ

مثلَ كِسَرِ البطّيخِ الأصفرِ،

على شفيرِ الشبّاكِ،

ويعمّ الإختناقُ.

عندما يوصدُ البابُ،

والبيتُ المسحورُ بأغصانِ النباتاتِ الرشيقةِ

الزرقاء المتسلّقةِ الجدرانِ،

ويطفّ الماءُ الباردُ في الفنجانِ الطينيّ،

والمنشفةُ الثلجُ،

والشمعةُ الطويلةُ

توهّجُ، كما في الطفولةِ،

تستدرجُ فراشَ الليلِ،

الهدوءُ يسقطُ مدويّاً،

ولا يُسمعُ صوتُ كلامي.

عندها، يتصاعدُ مضفرّاً شيء ما

من إطار لوحات «ريمبراند»(6)،

ويختفي، هناكَ، فيها.

-4

لكنني لستُ موطوءة بمسّ من خوف،

ولا تأخذني الرعشة ُ، أيّما رعشةٍ.

هنا التقطتني، بطُعمها، الوحدةُ الغلّابة.

صاحبةُ القطّ الأسودِ تمسّده، كعيني قَرنٍ،

فيما قرينيَ في المرآةِ ليس يُغيثُ.

سوف أنامُ بكلّ أوصافِ اللذّةِ.

أيّتها الليلة!

تصبحينَ على خير.

طشقند 1944.

-1

كما في الألبوم تقريباً:

تُنصِتُ للبرقِ، تذكرُني

تفكّر: اشتهتْ عاصفةَ الرعدِ.

تُصيّرُ رقعةُ السماءِ أرجواناً عاتياً،

فيما القلبُ يبقى، كعهدهِ، في النارِ.

سوف يمضي هذا أيضاً،

ذاك اليومُ الموسكوفيّ

حين، في اقتفاءِ خُطى المشتهى، أهجرُ المدينةَ

إلى الأبدِ

تاركةً ظلّي بينكم.

-2

بلا عنوان:

وسطَ جليدِ موسكو الكرنفاليّ،

حيث ينسكبُ الوداع، وداعنا،

وحيث قد تقرأون الطبعة الأولى

لأغاني فراقِ عيونٍ مندهشةٍ قليلاً.

ماذا؟ مستحيل؟

- بالطبع.

طاهرةٌ فيروزاتُ السمواتِ القدُسيّةُ،

والأشياءُ من حولنا طيّبةُ النفسِ.

لم يفترقْ أحدٌ، هكذا، عن أحدٍ.

هذا وسامُ بطولتنا.

-3

نخبٌ آخر بعدُ.

من أجلِ ثقتكَ العمياء بي،

من أجلِ إخلاصيَ الأبدِيّ لك،

من أجل الذي قادنا إلى هذه الحافّة!

فلنكنْ، أبداً، مأخوذَين بالسحرِ.

لكنّ الأرضَ لم تجئنا بشتاءٍ حاذقٍ بالروعةِ،

ولم تكنِ الصلبانُ مزخرفةً في أقاصي السماء.

سلاسلُ الهواء أطولُ من الجسورِ..

من أجلِ جاعلِ الأشياءِ تسبحُ، منزلقةً،

بلا محضِ صوتٍ.

من أجلِ من قضى أنّ لزاماً علينا ألا نلتقي.

1963-1961

إلى ذكرى بولغاكوف (7)

ها أنذا، لكَ، بدلاً من زهراتِ القبرِ،

وإشعالِ البخورِ. هكذا

عشـتَ بصرامـةِ الكفـافِ القليـلِ، وحتـى النهايـةِ ، ببلاغـةِ الإزدراءِ الأخـّاذِ، بلّغتَ.

وشربتَ النبيذَ،

وليسَ كما يتفكّهُ الآخرون، مزحتَ،

وكنتَ، بين جدرانٍ موصَدٌ عنها الهواءُ، تختنقُ،

أنتَ الذي أذِنتَ للضيفةِ الرهيبةِ أن تبقى

وحدها معك.

وها أنتَ لم تعدْ بيننا،

وكلّ شيء موطوءٌ،

عن هذه الحياةِ العاليةِ الكئيبةِ، بالصمتِ الأعمى.

وحدَهُ صوتي، مثل ناي ٍ ، يجلجلُ

حتى في وليمةِ دفنكِ الخرساءِ.

. . . . . .

ومن تجرؤ، أنا شبهُ المصابةِ بالجنونِ، أن يصدّقني،

أنا الناشجةُ الآن أيّامَ القتلى،

وأعمارَ المفقودينَ والمنسيّينَ،

المتقلبّةُ على نارٍ هادئةٍ.

من، بملء قواه وفيضِ إرادته،

من، بنواياه البيضاء،

كأنما حدّثني أمس،

وقد وارى رعشاتِ آلامِ ما قبلَ الموت.

1940

موسيقى قدّاس

1935-1940

لا.. ليس تحتَ قبّةِ سماءٍ أخرى دخيلةٍ
وليس في كنفِ أجنحةٍ غريبةٍ
كُنتُ، آنذاكَ، مع شعبي
هناك، حيثُ، لسوءِ الحظّ، كان..

1961

بمثابة مقدّمة:

سـبعةَ عـشرَ شـهراً، في سـنيّ القمـعِ الرهيبـةِ، قضيـتُ في طوابـيرِ سـجنِ لينينغـراد. مـرةً مـا، أحـدٌ مـا وشى بي. حينـذاك، كانـت امـرأة بشـفتين زرقاويـنِ تقـفُ خلفـي، ومـن المؤكّـد أنهـا لم تكـنْ قـد سـمعتْ باسـمي قـط. صحيـتْ مـن الذهـولِ الإعتيـاديّ الـذي كان يعمّنـا هنـاك، وسـألتني في أذني (هنـاك همسـاً يُختلـسُ الحـوارُ):

- هل تستطيعينَ تصويرَ كلّ هذا.

وقلت:

- أستطيع..

آنـذاك، انسـابَ شيء أشـبه بابتسـامة عـلى وجههـا الـذي لم يكـن، مـن قبـلُ، هذا.

1 أبريل 1957. مدينة لينينغراد.

إهداء:

تنحني، في حضرةِ الأسى هذا، الجبالُ،

ولا يندلعُ النهرُ الجليلُ.

وحدها، ترابيسُ السجنِ الفتّاكةُ،

وجحورُ الأشغالِ الشاقّةِ، خلفها،

والحسرةُ القاتلة.

لمنْ، طازجاً، يرفّ النسيمُ،

الغروبُ لمنْ يرِقّ؟

نحنُ لا نعرفُ،

نحنُ في كلّ أرضٍ كما نحنُ.

لا نسمعُ غيرَ صريرِ المفاتيحِ المقيتةِ ذاتها،

وخطى العسكريّ الثقيلات.

. . . . . .

نهضنا كما لو أننا إلى صلاةِ الفجرِ،

مستوحشينَ، ندبّ في العاصمةِ،

هناك التقينا، أنفاسُ قتلى هامدةٌ،

شمسٌ أدنى، والنيفا الضبابيّ،

فيما أملٌ ما ينشدُ في الأفقِ.

النطقُ بالحكمِ.. على عجلٍ تهطلُ الدموعُ

من مآقي الجمعِ، الدموعُ تجري فرادى.

كما لو أنّها..

بأقـصى وجـعِ العمـرِ، اسـتُلّتْ مـن القلـبِ، وكأنّهـا هائجـةً انكبّـتْ عـلى ظهرها..

لكنّها تمضي، مرتجّةً، وحدها.

أينهنّ اللواتي اضطررتُ أن أصادقهُنّ

في سنتيّ المسعورتينِ؟

ما الذي يلوحُ لهنّ في عاصفةِ الثلجِ السيبيريّ،

ما الذي يتراءى لهنّ في قرصِ القمرِ؟

لهنّ أرسلُ تحيّةَ الوداعِ.

آذار 1940

فاتحة:

كان هذا، عندما ابتسم

لكنّه ميّتاً كانَ، مغتبطاً بالسكينةِ.

بما فاضَ من ثرثرةٍ، تداعى

على مقربةٍ من أسوارِ سجونِ مدينتهِ لينينغراد.

كان هذا،

عندما مضتْ الأفواجُ المُدانةُ،

مخبولةً من الألمِ الفتّاكِ،

زفرتْ صفّاراتُ القاطراتِ

أغنيةَ الفراقِ القصيرة،

وانتصبتْ، فوقنا، نجومُ الموتِ،

وتلوّت روسيا البريئةُ

تحتَ البساطيرِ الدمويّةِ،

والعجلاتِ السُودِ لناقلاتٍ محملاتٍ بالمساجين.

. . . . . .

-1

قادوكَ، مع مطلعِ الفجر

وخلفكَ، كما في تشييعِ جثمان، سِرتُ،

انتحبَ الأطفالُ في الغرفةِ المعتمةِ،

وعندَ الضريحِ نطفتْ شمعةٌ،

على شفتيكَ برودةُ الأيقونةِ،

وعلى جبينكَ عرقُ الموتِ.. ليس يُنسى!

وسأبقى، كزوجاتِ المعدومينَ بالرصاصِ الفتيّاتِ،

أنوحُ

على أبراجِ الكرملين.

خريف موسكو 1935.

-2-

مطمئناً، ينسكبُ الدونُ الهادئُ،

الهلالُ الأصفرُ يلجُ البيتَ،

يدخلُ في قبّعةٍ مائلةٍ على جانبٍ رأسٍ.

الهلالُ الأصفرُ يُبصرُ ظلاً.

هذه المرأة مُعتلّةٌ،

وحيدةٌ هذِهِ المرأةُ.

صلّوا، إذنْ، لأجلي.

1938

-3

لا. إن هذه ليستْ أنا.

هيَ أخرى تتمرّغُ بالآلامِ.

ليس بي ما يُطيقُ كلّ هذا.

بينما هِيَ.. ما الذي يجري؟

دعِ الأجواخَ السوداءَ تُغشي

ولتحملِ المصابيح..

الليلة.

1939

-4

أأُريكِ، أيتها الساخرةُ

المعشوقةُ من كلّ الأصدقاءِ،

آثمةُ «تسارسكوي سيلو»(8)الجذلى،

ما الذي سيجري لحياتكِ

كما أنتِ - الرقمُ الثلاثمائة (9) في الطابورِ مع النُقلِ

ستظلّين واقفةً تحت الصلبانِ،

تلهبينَ، بدموعكِ الساخناتِ، جليدَ العامِ الجديدِ.

هناكَ، حيثُ يرتجّ حَورُ السجنِ،

ولا صوتَ

كم من الأرواحِ البريئةِ تُجتثّ.

1938

-5

بأشهريَ السبعةَ عشرَ أعوي،

أناديكَ حتى تعودَ إلى البيتِ.

أنتَ ابني، وروعي.

مختلطٌ كلّ شيء إلى آخرِ الدهرِ،

وليسَ بي ما يُدرِكُ: من الوحشُ الآن،

ومن الآدميّ.

أيطولُ انتظارُ إعدامكَ. وحدها

الورودُ التي تعفّرتْ بالغبارِ،

ورنينُ البخورِ، وآثارُ

تمضي إلى غيرِ ما جهةٍ،

والنجمةُ العظيمةُ، قاصدةً، تتفرّسُ في عينيّ

تنذرُ بمقتلكَ الوشيكِ.

النجمةُ العظيمةُ.

1939

-6

تطيرُ الأسابيعُ العجولاتُ.

ماذا جرى. ولا عِلمَ لي.

كيفَ تجري حياتكَ، بنيّ، في قبضةِ السجنِ.

أطلّتِ الليالي البيضاءُ

كيفَ أمكنَها أن تعودَ ثانيةً

بمُقلتيْ باشقٍ حرّاقتينِ

وتروي الأحاديثَ عن صليبكِ العالي،

وموتكَ ذاكَ.

ربيع 1939

-7

الحُكم :

وقعتِ الكلمةُ الحجريّةُ على صدري الذي ما زالَ حيّاً.

لاشيءَ، لاشيءَ. وحسبي تحسّبتُ من قبلُ.

سأعبرُ هذا على كلّ حالٍ.

لديّ، اليومَ، أعمالُ أخرى جمّةٌ:

ينبغي محوُ ذاكرتي كلّها،

وعليّ، لكي تتحجّرَ روحي،

من جديدٍ

أن أتعلّمَ كُنْه الحياة.

ليس هذا كما كانَ

حفيفُ الصيفِ القائظِ

كما لو أنّه احتفالٌ خلف نافذتي.

وبي، منذ وقتٍ بعيدٍ، نذيرُ شؤمٍ

اختلجَ اليومُ المُشمِسُ

والبيتُ المهجورُ.

صيف 1939.

-8-

إلى موت:

ما دمتَ ستأتي لا محالةَ،

فلماذا لا تجيء للتوّ؟

إني على انتظارِكَ.

شاقٌّ عليّ، ولا حولَ لي.

أخمدتُ الضوءَ،

وأشرعتُ البابَ.. لكَ.

جئْ كما أنتَ: بسيطاً، وغريباً

كُنْ على أيةِ هيئةٍ تشاءُ.

مقتحماً، كقنبلةٍ موبوءةٍ،

أو متسللاً، بصولجانكَ الحديديّ، كمجرمٍ حاذقٍ،

أو مسمّماً بأعقابِ التيفوس.

أو خُرافيّاً، خالقاً نفسكَ بالذي سوّتْ يداكَ،

كما أنتَ مألوفاً للخلقِ حدّ التقيّئِ.

كي أرى سقفَ القبّعةِ الزرقاءِ (10)،

والبوّابَ الشاحبَ بالرعبِ.

سيّانَ ما سوفَ يجري الآن.

يعلو «ينيسي»(11) متضفّر الأمواجِ،

يبرقُ النجمُ القطبيّ،

والألقُ الأزرقُ في المقَلِ الحبيبةِ

تواري الكابوسَ الأخير.

19 أغسطس 1939

-9

هو ذا الجنونُ، بجناحهِ، يغمرُ نصفَ روحي،

يجرّعُني النبيذَ الناريّ،

ثمّ يجرّني إلى وادٍ من الظلماتِ.

ووعيتُ. آن لي أن أسلمّهُ قوسَ النصرِ،

مستسلمةً لما هو بي

كما لوأنه هذيانُ آخرٍ، غريبٌ.

ولا شيء يشفعُ عندهُ. الجنونُ هذا

يقتادُني معهُ.

ولا يكلّف نفسهُ وسعاً بالتفاتةٍ لتوسّلي

وضراعاتي الحانية.

لا الألمُ الأصمّ في عيني ابني المرعوبتينِ،

ولا يومَ حلّتْ عاصفةُ الرعدِ،

ولا ساعةُ الزيارةِ في السجنِ،

ولا الأكفّ الرقيقةُ المندّاة،

ولا بقايا الظلالِ المضطربةِ،

ولا الصوتُ الخفيفُ السحيقُ -

كلمةُ العزاءِ الأخير.

4 مايو 1940.

-10

الصلب:

لا تنحبي عليّ، يا أمّ

في قبر

«تمجّدُ جوقةُ الملائكِ الساعةَ الجللَ،

السمواتُ انصهرتْ في السعيرِ».

قالَ للأبِ: لماذا تركتني!

وللأمّ: «لا تنحِبيني».

1938

-11

بكتِ المجدليّةُ لاطمةً،

وتحجّرَ التابعُ الحبيبُ.

بينما، إلى هناكَ

حيثُ تسمّرتِ الأمّ مأخوذةً بالصمتِ،

لم يجرؤ أحدٌ أن يرمي نظرةً ما.

1943-1930

خاتمة:

-1

عرفتُ، كيفَ تسقطُ الوجوهُ،

كيف يختلسُ الرعبُ التحديقَ من تحت الجفونِ،

كيـفَ تُـربّي الصفحـاتُ المسـماريّةُ الغلّابـةُ الوجـعَ المـرّ عـلى الوجنـاتِ،

كيـفَ تشـتعلُ خصـلاتُ الشَـعرِ التـي جُعلـتْ مـن الرمـاديّ أو الأسـودِ، في خلسـةٍ عنهـا، بالفِـضيّ.

كيفَ تذوي الإبتسامةُ على الشفاهِ المُذعناتِ،

ويرتجفُ الرعبُ في الضحكةِ اليابسةِ.

وأنا أصلّي، ليس لي وحدي،

بل لَكُمْ، كلّكمْ.

لمن وقفَ، هناكَ، مثلي

في البردِ اللدودِ،

في قيظِ تموز،

تحتَ جدارٍ أحمرَ أعمى.

أصلّي،

ليس لأجلي،

بل لأجلكمْ كلّكمْ.

-2

ثانيةً، أقبلتْ ساعةُ الغائبِ.

إنّي لا أزالُ أراكُنّ وأسمعكُنّ،

وإنّي أحسّ بكنّ:

تلكَ التي بالكادِ جُرّتْ إلى الشبّاكِ،

وتلكَ التي لم تعدْ تدُبّ على الأرضِ،

وتلكَ التي هزّتْ رأسَها الجميلَ، وقالتْ:

أجيء هنا، وكأني آتي إلى البيتِ.

إنّ بي رغبة أن أسميكنّ جميعكنّ بأسمائِكنّ.

لكنّهمْ سرقوا القوائمَ،

ولا يُعرفنَ في أيّ أرضٍ.

حِكتُ لهنّ غطاءً وسيعاً من كلماتهنّ الطائعةِ البائسةِ.

وسأبقى، أبداً، أتذكرهنّ، حيثما حللتُ

ولن أنساهنّ في فجيعتيَ الآتية.

-3

وإذا كبتوا فميَ المكلومَ

بالذي يصرخُ شعبيَ المضنيّ،

دعهنّ يحتفلنَ بي

عشيّةَ يومِ ذكرايَ.

وحين يفكّرون، ذاتَ وقتٍ في بلدي،

بنصبِ تمثالٍ لي،

سوف أعطي موافقتي باحتفاليّةٍ. فقطْ

ألا يشيدوهُ على مقربةٍ من البحرِ، حيثُ ولدتُ.

انقطعتْ آخرُ أوصالي مع البحرِ.

ولا في الحديقةِ القيصريّةِ عند جذموريَ المنشودِ،

حيثُ يبحثُ عني الظلّ الذي لا سلوانَ عنه.

بل هنا،

حيث وقفتُ ثلاثمائة ساعةٍ،

وقد غُلّقتْ دونيَ الأقفالُ.

-4

وأخشى، بعد هذا، في موتيَ المباركِ

نسيانَ دويّ العجلاتِ السُودِ للناقلاتِ حاملاتِ المساجين،

نسيانَ كيفَ أُوصِدَ البابُ الممقوتُ،

وعوتْ عجوزٌ كوحشٍ جريحٍ.

وليكنْ أن هذا الثلج الذائبَ يجري

كالدموعِ، من القرنِ البرونزيّ الجامد.

وليكنْ..

حماماتُ السجنِ تنوحُ في الأفقِ البعيدِ.

وليكنْ..

تمضي السفنُ في النيفا هادئةً.

آذار 1940

الهوامش:

1- الكسـندر بلـوك (1880-1921): مـن أشـهررموز الرمزية في الشـعر الـروسي، واشـتهر في عالمنـا العـربي بملحمتـه «الإثناعـشر». عـرف أنـه لم ينتسـب قـط للحـزب الشـيوعي رغـم كافـة الضغـوط والإغـراءات التـي انهالـت عليـه، ومـع ذلـك دعـاه مكسـيم غـوركي، مثقـف السـلطة السـوفيتية الأشـهر آنـذاك، ليشـغل منصـب رئيـس تحريـر دار الآداب العالميـة التـي أشرف عليهـا عـام 1918.

2- النيفا: نهر روسي عريق

3- باسـترناك:هو الشـاعر باريـس باسـترناك الحاصـل عـلى جائـزة نوبـل لـلآداب 1985، إثـر حيـازة روايتـه المبدعـة دكتـور جيفاغـو التـي انتقـدت بشـدة العهـد السـوفيتي عـلى شـهرة عالميـة منقطعـة النظـير، لكنـه رفـض اسـتلامها، تحـت ضغـط السـلطات السـوفيتية كـما أشـيع.

4- نوع من الكلاب كان بحوزة الشاعر

5- لاروكوف:كاهـن أبولـون في مدينـة «تـروي» في فـترة الحـرب. دافـع ببسـالة عـن المدينـة، ولقـي مصيره بـأن خنـق مـع أبنائـه بلـدغ أفـاع أرسـلتها الإلهـة «أثينـا».

6- ريمبرانـد: فنـان عـاش بـين عامـي 1606 و 1696، عـرف بأفـكاره وتطلعاتـه الديمقراطيـة. اعتـبر كثـيرون مـن علـماء الجـمال أن

لوحاته العميقة تكثيف لهواجس الذات، وقد ذهب بعض علماء النفس إلى أنها فضاء لاكتشاف الذائقة الإنسانيّة.

7- ميخائيل بولغاكوف: كاتب عظيم، مبدع رواية «المعلم ومرغريتا» التي اعتبرها نقاد من أهم أعمال القرن العشرين الإبداعية. ربطته بالشاعرة صداقة عميقة، وقد كان من أشد المدافعين عن حق زوجها وابنها في الحياة بحرية، حتى أنه، وهو الذي كان مغضوباً عليه من ستالين، قام بتحرير رسالة مشتركة مع الشاعرة أرسلاها إليه تطالب بذلك.

8- تسارسكوي سيلو: ضيعة حيث عاشت الشاعرة، في ضواحي لينيغراد، كان القياصرة الروس يستجمون فيه.

9- الثلاثمائة: رقم على شريط أشبه بسوار كانت تحمله الشاعرة على معصمها، وهو يشير إلى دورها في زيارة سجينها.

10- القبعة الزرقاء: تلك التي كان يرتديها رجال البوليس السرّيين السوفييت. والبوّاب هنا كان يستخدم كعميل لهم ليلة الإعتقال.

11- نهر روسي في سيبيريا.

سيرغي يسينين:

شاعـــــــــر الـــــــــروح الـــــــــــروسي

لقـد كانـت حيـازة سـيرغي يسـينين، المولـود في قريـة كونسـتانتينوفا في ضواحـي مدينـة ريـزان في الثالـث مـن أكتوبـر مـن عـام 1895، في أسره فلاحيّـة بسـيطة ، عـلى كل هـذا المجـد الشـعريّ الـذي أطبـق الآفـاق أعجوبـة فائقـة.

ولعـلَ البهـاء الأخـاذ الـذي أبدعتـه طبيعـة الريـف الـروسيّ قـد عمّقـت حـسّ يسـينين بالجـمال، وتركـت روحـه مفتوحـة للأزهـار والحريـة، إذ غالبـاً مـا كان يتهـرّب مـن وطـأة الـدوام المـدرسيّ ليذهـب مستسـلماً بحواســه الطفليّــة لمفــردات وتفاصيــل عــالم لا نهــائيّ مــن الســحر والانعتـاق. لقـد كتـب ذات مـرة لصديقـه في الصـف «أتـوق أن يـأتي سريعـاً خـلاصي مـن هـذا الجحيـم».

ولم يكـد يكمـل المرحلـة الدراسـيّة خريـف 1912 حتـى يهجـر بيـت والـده الـذي كان يعتقـد أن الشـعر لا يطعـم صاحبـه خبـزاً أسـود للعمل إلى موسـكو، ليعـاني الفاقـة، ويضطـر للكـدح في دكان لبيـع اللحـوم، ثـم في مطبعـة، ويتناهشـه مصـير غامـض غاضـب يبقـي أثـراً مـن الوحشـة ومسـحة مـن تشـاؤم في شـعره. لكنـه يتقـوّى عـلى حالاتـه التـي كادت تُزمِنـه مـن الوحـدة والضيـاع الموشـك المريـب، فيلتحـق مـع عـام 1913 مسـتمعاً بقسـم التاريـخ والفلسـفة في الجامعـة الوطنيـة الموسـكوفية.

ولا بـد أن تعرّفـه بجماعـة سـوريكوف الأدبيّـة الموسـيقيّة،، سـيما وأن

زعيمهـا الشـاعر ايفـان بيلاوسـوف اسـتقبله بحفـاوة، ودعـاه للعيـش معـه، أطلقـت ملكاتـه الإبداعيّـة إلى آفـاق جديـدة مـن البحـث والخلـق الفنـي مـن جهـة، وقادتـه لاعتنـاق الأفـكار الديمقراطيّـة، ورفـض السـائد المهيمـن عـى المشـهد الحيـاتيّ، وتلمّـس الـرؤى التـي تفـضي إلى أشـكال تغيـيره، ونسـف التصـورات التـي أصّلـت لـه. وفيـما يتعاطـى معهـم توزيـع المنشـورات السريّـة، تلاحقـه مناخـير وظـلال البوليـس الـسريّ، وتضيـق عليـه الأمكنـة، بينـما يبقـى الشـاعر الطفـل الـذي يشـكل جوهـر كيانـه المتوحّـد مـع طفولـة طبيعـة الريـف الـروسيّ، فسـحة لانتصـاره عـلى الرعـب والتشـتت والكآبـة المزمنـة.

وفيـما ينـشر يسـينين لأول مـرة قصيـدة لـه في مجلـة الأطفـال «ميروك»عـام 1914، يلتفـت الوسـط الأدبي لموهبتـه الطازجـة في رسـم لوحـات خصوصيـة غـير مالوفـة، إلا أن مغادرتـه موسـكو، مجتمـع الذئـاب كـما وصفهـا، جهـة مدينـة بيتروغـراد، عاصمـة الأنتلجنسـيا وإبداعاتهـا، ليلقـي شـعره في حـضرة الشـاعر الكبـير ألكسـندر بلـوك، كـما جـرت عـادة كثـير مـن الشـعراء الشـباب، رفعتـه درجـات بـين أقرانـه.

غـير أنّـه يسـتدعى للحـرب في ينايـر مـن عـام 2016، الحـرب ذاتهـا التـي ناهضهـا وأوشـكت هواجسـها التـي ألمـت بـه أن تعمّـق جهـات ضياعـه، في الوقـت الـذي ينصهـر فيهـا مـع تجليّـات مجموعـة «الشـعراء الفلاحـين الجـدد»، ويعكـف في العـام نفسـه عـلى إصـدار مجموعتـه الأولى «رادونيتسـا» التـي قيّضـت لاسـمه أن يصبـح في عـداد الشـعراء الـروس المعروفـين. في هـذه المجموعـة التـي رأى مكسـيم غـوركي أن

الأوساط استقبلتها بحفاوة مبطّنة بالمداهنة، تتجاور حساسيّة رفض الحرب، وحاسة التوحّد بجماليّات الأشياء وصفاء الروح الإنسانيّ الممتدّ كنشيد الطبيعة الأزليّ.

ومع اندلاع ثورة البلاشفة التي تزامنت مع سطوع نجمه الشعريّ تهيمن على ذات الشاعر مساحة ممتدة من الإرتياب بأن تجد الأفكار البرّاقة التي اتكأت عليها لتحطيم العهد القيصريّ وكسر صورة عالمه وتصوراته مكاناً لها في مرايا الواقع الذي يمضي إلى مجهول مؤرّق، ومن التأثر بتصورات جماعة الأماجينيزم التي تستند في جوهرها على الشكل متجاهلة المضامين في خلق عالم إبداعيّ يتقّدم العالم الواقعيّ ليغدو معادلاً له.

وتحت وطأة تحوّلات عاصفة بذات الشاعر وعالمه المحيط يصدر يسينين باقة مجموعات شعرية، بين عامي 1921 و 1924، أسّست لمشروع شعريّ خصوصيّ شكل انزياحاً جماليّاً في حركة الشعر الروسيّ، أهمّها: «اعترافات متذمّر»، «اشعار مشاغب»، و«موسكو الحانات».

وإذ يشهدعام 1924 انسحاب يسينين من الجماعة، بعد خلاف حادّ مع الشاعر أناتولي مارييننغوف، بإعلان يوقّعه إلى جانب الشاعر إيفان غروزينوف وينشره في الصحف، تتوالى المقالات الإنتقاديّة الحادة له، والتي قدمتهّ شخصية خارجة على المعايير والأعراف والقيم الإجتماعيّة، وتعاطت مع مسلكه كرجل سكير وفاسق يقترف الشجارات ويثير المشاكل والشغب، حدّاً عمّقت في ذاته مسافة التشتّت وأبعاد الضياع ورحلة التناقض مع عالم أدرك أنّه

لـن يفهمـه، وربمـا لا يليـق بـه، عـلى الرغـم مـن أن تصرفاتـه في سـنوات عمـره الأخـيرة أعطـت مـبرراً لمثـل هـذه المقـالات التـي توقّفـت عنـد عيوبـه ومثالبـه وكيـل الاتهامـات لـه دون غيرهـا، ولعـل مـن أشـهرها مـا عـرف بملـف «الشـعراء الأربعـة» والتـي اتّهـم فيهـا يسـينين صراحـة «بقـذف الساميّة» أو تبنـي اللاساميّة، وهـي تهمـة خطـيرة آنـذاك.

ولا بـد أن طغيـان شـهرة يسـنين ومـا أثـير حـول حياتـه مـن جـدل أقلقـت المشـهد السـوفيتيّ برمتـه، الأمـر الـذي دفـع كريسـتيان راكوفسـكي، رئيـس الهيئـة التنفيذيـةّ والإداريّـة العليـا للسـلطة السـوفيتيّة، بإبـراق رسـالة لرئيـس جهـاز الإستخبارات والأمن السـوفيتي فيليكـس ديرجينسـكي، مؤرّخـة بالخامـس والعشريـن مـن أكتوبـر لعـام 1925، يطلـب فيهـا «إنقـاذ حيـاة الشـاعر الشـهير سـيرغي يسـينين، الشـاعر الأشـهر في اتحادنـا السـوفيتي»، مقترحـاً فيهـا عـلى ديرجينسـكي أن يقـوم بدعوتـه إلى مكتبـه والتحـدث معـه «وإرسـاله مـع مرافقـة مـن جهـاز الأمـن إلى أحـد أماكـن الراحـة والاسـتجمام ومنعـه مـن تعاطـي الكحـول». لكـن الـردّ عـلى إيعـاز ديرجينسـكي باتخـاذ الـلازم يـأتي عـبر السـكرتير التنفيـذي: «لقـد اتصلـت أكـثر مـن مـرّة بـه، ولم أسـتطع العثـور عـلى أثـر لـه».

لكـن صديقـه أوسـتينوف يعـثر عـلى جثّتـه في فنـدق في لينينغـراد في الخامـس والعشريـن مـن ديسـمبر لعـام 1925، وقـد كتـب عـلى أوراق وضعـت بعنايـة فائقـة: «وداعـاً، صديقـي. صديقـي وداعـاً....». ووفـق شـهادة فولـف ايرليـخ فـإن يسـينين «كان يشـكو مـن فقدانـه للحـبر في الفنـدق، فاضطـر للكتابـة بدمـه».

وانقسـمت الأوسـاط حتـى يومنـا هـذا بـين أن يكـون يسـينين قـد قـضى منتحـراً، أم قتـل عـلى أيـدي رجـالات الأمـن السـوفييت.

لكـن المؤكـد أن يسـينين قبـل مصرعـه بيومـين كان قـد عـرج عـلى بيـت زوجتـه السـابقة والتـي تزوّجـت مـن مخـرج مسرحـي، الراقصـة الأمريكيـة الشـهيرة آيسـيدرا دونـكان والتـي تزوجهـا في مايـو 1922 وذهـب معهـا إلى أوربـا في رحلـة فنيّـة لهـا فتملكتـه لفحـات حنـين جـارف إلى وطنـه حيـث كتـب أن موسـكو أحـب بقـاع الأرض، ثـمّ عانق ابنتيـه عناقـاً طويـلاً. كان العنـاق الأخـير، والأزليّ.

-1

الشاعر:

شاحبٌ يتعمّقُ في الطرقِ المرعباتِ

وفي روحه تتناسلُ أشباح شتّى،

وفي صدرهِ لطماتُ الحياةِ تدقُّ

وقد جرحَ الشكّ خدّيهِ

حائرةٌ خصلاتُهُ،

وجبهتُه بتجاعيدِها سامقةْ.

لكنّ أحلامَهُ الصافياتِ

التي اضطرمتْ بغوايةِ لوحاتِه الممعناتِ،

بهاؤهُ.

. . . . . .

يجلس في ركنِ عليّةٍ ضيّقةْ،

وبقايا الشموعِ تغبّشُ ألحاظَهُ،

وفي يدهِ قلمٌ من رصاصٍ

بِسريّةٍ كان يُجري حواراً معه.

ثم ّ يكتبُ أغنيةً برؤاهُ الحزيناتِ،

بالقلبِ يلقفُ ظلّ السنينِ التي عبرتْ.

كان هذا الدويّ صدى روحِهِ.

ها هو يحتملُ الآنَ ما سوف يأتي به غدُهُ..

من أجلِ ما قدْ يُقيتُ الحياة.

1910-1912

-2

وليس يُرى خلفَ ذاك الضبابِ السحيقِ الذي هاءَ

ماذا هناكَ سيحصلُ لي؟

هل هي الغبطةُ المشتهاةُ، الأخيرةُ

أم راحةٌ تعتري صدري التعسِ؟

أم أن ذاكَ الذي شابَ

يطمرني بالحزنِ ثانيةً،

يملأ القلبَ ثانيةً بالجراحِ الكتيمةِ

يلهبني دون محضِ نارِ؟

لكنني عبر حلكةِ هذا الضبابِ السحيقِ

أرى الفجرَ مُندلِعاً.

هذا الموتُ للأرضِ، تلك الكئيبةِ

فيما السكينةُ لي

1912

-3

صلاة أم:

في الكوخِ القديمِ هناكَ على حافّةِ الضيعةِ
العجوزُ تصلّي على صدرِ أيقونةٍ.
العجوزُ تصلّي، الدموعُ تُهالُ، وأحلامٌ
تبرقُ في مقلتيها الكليلة.
ترى الأرضَ، ساحَ المعاركِ
حيث ابنها، بالبطولةِ كاملةً، كان مُلقى قتيلاً.
ومن صدرهِ الواسعِ، الدم ينفُرُ، والبيرقُ
العدوّ في اليدينِ الثابتتينِ.
جمدتْ من الفرحِ الأشدّ، المرّ بالغصّاتِ
العجوزُ
وعلى يديها نكسّت رأساً شائبةْ.
بياضٌ قليلٌ غزا حاجبيها
كالخرزِ تنهالُ من مقلتيها الدموعُ الذبولة.

1912

4-

...

روسيا يا وطني!

أنتِ لم تؤمني بإلهي

وذرعتِ البعيدَ كساحرةٍ،

حيثُ كُنتُ ربيبكِ.

ها نسي المقاتلُ إيثارَهُ، المقدامُ

والنبيّ شاخَ، وأبيضّتْ عيناهُ بالعمى

فامنحنيني إذن يديَ الباردة،

والمضيّ بدربي الوحيدِ

أيّتها القيصرةُ التعيسةُ!

فلنمضِ إلى الإيمان الجذلِ الأوحدِ

حيث ستزهرُ غبطتُنا الاولى،

حيثُ الأيقونةُ خاشعةً بطمأنينتها

لا تحني إذن هامتَكِ على الصدرِ البطّاشِ،

ولا تخافي عليكِ من الحلمِ،

وفي سُقوطي المُهلكِ

كوني إذن أمّيَ المرشدة.

1914

-5

وطني، مأواي الآخَرُ

بالسقفِ الذهبيّ!.

انفخْ في البوقِ، وخوّرْ كالبقرةِ،

إجأرْ كالعجلةِ الثائرة.

أتسكّعُ في الغاباتِ الزرقاء، أيّ رضى

مغتبطاً وقنوطاً. لكنّني كلّي لك أيّتها الأمّ.

في مدرسةِ الإدمانِ على العربدةِ

صلّبتُ حواسَ جسمي،

من عويلِ البتولاتِ

ينمو ضجيجُك هذا الربيعيّ.

كمْ أحبّ خطاياكِ: السلبُ والنهبُ،

ثمّ، صباحاً، ضياعُ نجومِكِ في الشرقِ

وكما أدركُ

إنّ بي رغبة أن«آخذك جميعاً»، وأدعككِ

وبأقصى المراراتِ ألعن أنّكِ لي، أمّاً.

1917

-6

...

السهلُ الثلجيّ، القمرُ الأبيضُ

جِهتُنا ملفّعةٌ بالكفنِ،

والبتولا، ببياضِها، تنشجُ في الغاباتِ.

من المقتولُ هنا؟

من الميّتُ؟

ألستُ أنا؟.

1925

-7-

...

وداعاً، وداعاً صديقي.

صديقي الرقيقَ، وداعاً، صديقي.

هذا الفراقُ المعدُّ

يعدّ لقاءً عتيدا.

وداعاً صديقي، دون سلامٍ،

ودون كلامٍ.

فلا تبخعِ الروحَ، لا تعقدِ الحاجبينِ.

كما الموتُ ليس جديداً على هذه الأرضِ،

فالعيشُ ليس جديداً.

1925

-8

صلوات ريفية:

يا شمسُ

أيّتها النضاريّةُ المسدلةُ في قاعِ الدلوِ!

اغرُفي روحي

واستلّي من الجبِّ غصّاتيَ القديماتِ.

كلّ يومٍ

قابضاً على سلاسلِ أشعتّكِ الشقراء

ارتقي درجاتٍ إلى السماواتِ،

وكلّ مساء

أفلتُ هاوياً في حَنَكِ الغروبِ.

كمْ ثقيلٌ، ومرٌّ عليّ. بالدمِ ينشدُ الثغرُ،

والثلوجُ،

الثلوجُ البيضُ تردمُ هذي الأرضَ/ وطني

تقطّعهُ شظايا..

جسمُهُ متدلٍّ على الصليبِ

وساقاهُ مكسّرتانِ على الهضابِ وفي الدروبِ.

عواءُ الذئبِ من الغربِ

ريحٌ، والليلة

كغرابٍ يشحذُ منقارَهُ على عينيّ البحيرةِ.

وعلى لوحةِ الصليبِ المدقوقةِ على جبهةِ الفجرِ:

عيسى الناصريّ
قيصرٌ يهوديّ.

-9

أيّها الهلالُ

يا قبّعةَ جدّيَ الشقراء

التي رماها الحفيدُ على فرعِ غيمةٍ!

ارتمِ على الأرضِ،

واحجبْ عينيّ عنّي.

أينكَ؟

أينَهُ وطني؟

وطني!

العاصفةُ، بأليافِها، قشّرتْ دروبَكَ،

ثلجُكَ يلحسُ بلسانِهِ الكحليِّ وبرَكَ الأبيضَ.

وها أنتَ تستلقي كنعجةٍ،

هازّاً قدميكَ في الفضاءِ،

خالطاً بين السماواتِ والزرائبِ

بين النجومِ والشوفانِ المذهّبِ.

آه، اخلطْ إذنْ

كلّ شيءٍ على مدِّ عينيكَ.

......

لا أتبرأُ منكَ حتّى مع الشمسِ التي تشبّهتْ بالخنزيرِ،

لا أخشى فِنطيستَهُ المحشورةَ في سياجِ خوازيقِ روحي.

سرُّكَ الجليلُ

لا يزالُ

ومقتلُكَ العظيمُ جُرنُ المعمودِيّةِ

......

-10

أيّها الفلقُ الأحمرُ!

اغفرْ لصُراخِي

غفرانَكَ إن خلطْتُ بينَ دُبّتِكَ ومغرفَةِ السَقّاءِ.

يا رُعاةَ الصحارى!

ما الذي نذكُرُ؟

أكملتُ الأبرشيّةَ فقط،

وفقط أعرفُ الإنجيلَ حتى الخُرافة، فقط

ما يغنّي الشوفان في الليلِ، وأيضاً

العزفُ على الهارمونيكا في الأعيادِ.

وأقولُ لكمْ:

الموتُ أجملُ من أنْ تعيشَ بجلدٍ مسلوخٍ.

فلتُقتلْ يا وطني

ولتُقتلي يا روسيا

كاتبةَ العهدِ الثالثِ.

......

-11

أيّتُها النجماتُ!

الشمعاتُ النحيلاتُ

المبقّعاتُ شمعاً أحمرَ على فجرِ المُصلّي!.

فلتتنحني أدنى كثيراً

ولتميلي على لهيبي

كي أستطيعَ، صاعداً أصابعَ القدمينِ أعلى، إيقادَهُ

هو لا يُذكرُ من أضرمكِ

من أيّ موتٍ غنّى لكِ؟

واغتبطي يا أرضُ.

بشّرتْ عذراءُ روسِكِ تلكَ بميلادٍ جديدٍ

لابنٍ تلدُهُ لكِ

وسوفَ يُسمى: عزرا المُنتَقِم

غنّ، وضُجّ أيّها الفولغا

في حظيرتِكَ الزرقاءُ سوفَ ترمي وليدَها.

لا تقولوا لي: ما هذا؟

مُكتملاً سوف يشرقُ القمرُ.

هذا هو!

هذا هوَ يُطلّ برأسِهِ من رحمِ السماءِ.

رسالة إلى امرأة:

-1

تذكرينَ،

لا بدّ أنكِ، كل ّ شيء، تذكرينَ.

كيف أني وقفتُ، وظهري توحّد بالجدارِ،

فيما أنتِ، على قلقٍ،

تحومينَ في الغرفةِ

وترمين وجهي بما يجرّح من كلامٍ لعينٍ.

وكنتِ تقولين: قد آن أن نفترق،

وأن حياتي الطائشةَ أعيتْكِ،

وأنّ وقتكِ قد حلّ لاجتراحِ أعمال أخرى،

وأن مصيري

أنْ أتحدّر، أبعد، تحتُ في قاعِ الحضيضِ.

-2

حبيبتي!

أنتِ ما أحببتني.

أنتِ لم تدركي أنني، في ازدحام الآخرين المتلاطمِ، كنتُ

أشبه بالحصانِ الذي اقتيدَ في الرغوةِ

بهمزِ الخيّال المكينِ، العنيدِ.

أنتِ لم تعرفي أنني، في الدخانِ الكتيمِ، كنتُ

في حياةٍ جرفتها العواصفُ

أتقلّب بالعذابِ

فلستُ أعي إلى أيّما جهةٍ تجرّنا المنايا.

حين يلتحمُ الوجهانِ

لا يُرَيانِ.

الكبيرُ لا يُرى إلا في الأقاصي.

-3

حين يزبدُ سطحُ البحرِ راعداً

فالسفينةُ على مرمى المراثي.

الأرضُ – سفينةٌ!

ولكنّ أحداً ما، على فجأةٍ،

خلف حياةٍ ومجدٍ جديدينِ،

في صميم الزوابع وعاصفة الثلجِ

بجسارةٍ المهابةِ كلّها، يمّمها وجهتها.

من منّا على ظهرِ السفينةِ الوسيعِ

لم يهوِ، أو يبصقَ، أو يلعنَ..

أقلّاء، بأرواحٍ مدربّةٍ، هم الذين ظلّوا

منتصبين في رجّةِ الدوارِ.

-4

عندها

في الصراخِ الوحشيّ،

عارفاً، بالحنكةِ ذاتها، ما الذي ينبغي

انحدرتُ إلى العنبرِ

كي أتّقي مشهدَ القيء الآدميّ.

كانَ العنبرُ ذاكَ خمارةً روسيةً

فانحنيتُ على الكأسِ

لئلّا أتجرّعَ الآلامَ من أجلِ روحٍ ما

وأُفني النفسَ في سَورةٍ السُكرِ اللعين.

-5

حبيبتي!

تعذّبتِ بي.

الحزنُ عتيّاً كان يقطنُ عينيكِ المكدودتينِ

ذلك أنني، فيهما، وعلى رؤوسِ الأشهادِ

أبدّدُ نفسي في الشجاراتِ الفاضحة.

غير أنكِ لم تدركي

أنني، في الدخانِ الكتيمِ، كنتُ

في حياةٍ جرفتها العواصفُ

أتقلّب بالعذابِ

فلستُ أعي إلى أيّما جهةٍ تجرّنا المنايا.

والآنَ، مضتْ كلّ تلك السنون،

وأنا في عُمُرٍ آخرَ،

أحِسّ وأفكّر كما ليسَ من قبلُ

وأقولُ في حضرة ِ نبيذِ العيدِ:

الحمدُ كلّهُ

والمجدُ للربّانِ!.

-6

وأنا، اليومَ،

في وطأةِ انقضاض الأحاسيسِ التي ترِقّ عليّ

أتذكّرُ حزنَكِ المُنهِك،

والآن،

بالعذابِ الذي هيّأتُ، أخبركِ الآنَ

كيفَ كنتُ، وما الذي تبقّى فيّ!.

. . . . . .

حبيبتي!

أقول لكِ الذي يطيبُ لي:

إني تفاديتُ السقوطَ من الجرفِ العالي.

والآن،

في الجهةِ السوفيتيةِ

أنا الراحلُ الأشدّ وضوحاً.

صرتُ على غيرِ هيأتي تلكَ.

-7

ما كنتُ لأقترفَ العذاباتِ لروحكِ،

مثلما كنتُ أسوّي من قبلُ.

خلف بيرقِ الحريّةِ، والعملِ المقدّسِ

جاهزًا أن أمضي حتى إلى المانش.

غفرانكِ،

أعرفُ أنكِ الآن غيرَ تلكَ التي كنتِ.

تعيشينَ مع زوجكِ الحاذقِ، المؤهّلِ

ولم يعدْ لازماً لكِ كدْحُنا.

وأنا

لم أعدْ ضرورياً لكِ أيضاً

ولو مثقالَ ذرّةٍ.

فلتعيشي، إذن، هكذا

حيثُ يدلّكِ نجمُكِ

تحتَ خيمةِ كومةِ قشّ.

مع سلاماتِ الذي، أبداً، يبقى على ذكراكِ.

المعروفُ لديكِ:

سيرغي يسينين.

الإنسان الأسود:

-1

صديقي، صديقي

مريضٌ أنا، ثمّ جِدٌّ مريضٌ.

لستُ أعرفُ منْ أينَ يعصِفُ بي ألمي،

في درب آلامي،

أَمْ هيَ الريحُ تعوي

على ناصياتِ الحقولِ المُوحِشاتِ المُقفِراتِ،

أَمْ أنّ الكحولَ

كما الدُغْل في شهرِ أيلولَ،

ينثُرُ عقلي.

إنّ رأسي بأذنيّ كجناحَي طيرٍ

لهُ فوقَ رأسي ساقانِ

بما لا يُطاق، لاهِثاً

......

الإنسانُ الأسودُ

الأسودُ الأسودُ

الأسودُ الإنسانُ

على محضِ مقرُبةٍ منّي الآنَ

يقبعُ فوقَ سريري.

الإنسانُ الأسودُ - اللَيْل كلّهُ

لا يهبُ النومَ عينيّ.

الإنسانُ الأسودُ، بأصابعِهِ

يتَتبّعُ في «الوحيِ»* الفاحشِ

ويُخنْخِنُ فوقي

تماَماً كما لو على جثمانِ راهبٍ،

يلقّنُنِي حياةَ أحدٍ ما مدمِنٍ ودنيءٍ،

ثمّ يُلقي على روحي الكآبةَ والرعبَ.

. . . . . .

الإنسانُ الأسودُ

الأسودُ الإنسانُ.

إصغِ ، إصغِ، غَمغِمْ بي

لوحُكَ غاصَ بالرؤى والنوايا الباهراتِ.

هذا الإنسانُ

عمّرَ في بلدِ الأوباشِ الأشدّاءِ

والمُشعوذينَ الكريهينَ.

ثلجُ كانون ذلكَ البلدِ نظيفٌ حتّى الشيطان

وعواصفُهُ تُديرُ المغازلَ الجذلى

لكنّ علاماته فائِقة.

لبِقاً كانَ، وفوقَ هذا شاعرٌ.

الإنسانُ ذاكَ كانَ أرعنَ.

......

وليكنْ أنّ إرادتَهُ ليستْ كما ينبغي،

لكنّها حاذِقَة.

سمّى امرأةً تنوفُ الاربعينَ حسناءَهُ

وفتاتَهُ الفاحِشَةْ.

الغِبطةُ، قالَ، تكمُنُ في لباقَةِ الذهنِ واليدِ.

كلّ ارتباكاتِ الروحِ، أبداً، متعُوسَةٌ.

لا ضير.

وغمَراتُ العذابِ تولدُ انكساراتٍ خادِعَة.

في البُروقِ،

وفي العواصفِ،

في الزمهريرِ الدنيويّ،

في الضياعِ الكتيمِ،

حيثُ يطمُرُكَ الحُزنُ

يبقى إبداعُكَ الفَذّ

أن تظلّ مبتسماً في الكونِ،

وبسيطاً.

......

أيّها الإنسانُ الأسودُ!

أنتَ لا تجرؤُ على هذا!

وليسَ لزاماً عليكَ

طالما لستُ في خدمتِكَ،

أن تحيا غطّاساً

ماذا تعني الحياةُ ذاتُها حتّى، لشاعرٍ فضّاحٍ؟

أرجوكَ،

قُصّ على غيري، إذنْ، رؤاكَ.

الإنسانُ الأسودُ

ثبّتَ عليّ عينينِ مُتلفّعَتَينِ بقَيءٍ أزْرَق.

كانتْ بهِ رغبةٌ

أن يجْهَرَ بي:

أنتَ مكّارٌ ولِصّ

دونَما محضٍ من خجلٍ،

وبالوقاحَةِ ذاتِها،

سطوتَ على سيرةِ أحدٍ ما.

-2

صديقي، صديقي

صديقي، صديقي

مريضٌ أنا،

وجِدّ مَريض.

لستُ أعرفُ منْ أينَ يعصِفُ بي أملي في درب آلامي.

أمْ هيَ الريحُ

تعوي على ناصياتِ الحقولِ الموحشاتِ

المُقفِراتِ.

أمْ أن الكحُولَ، كما الدُغْل في شهرِ أيلولَ، بَذّرَ عقلي.

مُتجمِدةٌ هي الليلةُ

تقاطعُ شارعينِ هادئٌ ومطمئنّ.

ووحدي على النُويفِذَة

. . . . . .

لستُ على انتظارِ ضيفٍ.

أو صديقٍ.

السهولُ جميعُها مُجلّلةٌ بالثلوجِ،

بالكلسِ الطفيفِ سريعِ الانهيارِ،

والأشجارُ كفُرسانٍ التقوا في بُستانِنا.

وفي مكانٍ ما يعولُ طيرُ الشؤمِ

بينما ينشرُ الفرسانُ القرويّونَ وقعَ الحوافرِ.

وهذا الأسودُ، من جديدٍ، يحتلّ مقعدي

رافعاً قبّعتهُ العاليةَ للتحيّةِ،

رامياً، دونَ اكتراثٍ سترْتَهُ.

اصغِ

جشرَ، مُحملقاً في وجهي،

كلّهُ على مقربةٍ منّي، ومالَ عليّ:

لمْ أرَ أحداً منَ الأخِسّاء،

هكذا، دونَ جدوى حمقاءَ، يَبريْهِ الأرَقُ.

. . . . . .

آهِ، فلأُسَلّمْ، أخطأتُ.

ها. القمرُ الآنَ.

ما الذي يحتاجُهُ، بعد،

الشاعرُ مكتملُ الاغفاءةِ؟

ربّما، على غفلةٍ، تعودُ

هي ذاتُها

بفخذينِ مُكتنزينِ،

وتتلو عليها قصيدتَكَ الخائرةَ الساجية.

كمْ أحبّ الشعراءَ

كائناتُ مسليّةٌ. دائماً

ألتقي فيهم التاريخَ، قلبَهُ المألوفَ

كطالباتٍ كثيراتِ البُثورِ،

بشَعرٍ خنفسائيّ دميمٍ

يحدّثُ عن عوالمَ أخرى،

وباسترخاءٍ

عن النَزفِ الحسيّ.

. . . . . .

لستُ أعرفُ.

لستُ أذكرُ

في قريةٍ ما، ربّما، في «كالوغا»،

أو ربّما في «ريزان»

عاشَ فتى في سلالةِ فلّاحينَ بُسطاء

بشَعرٍ أصفرَ،

وعينينِ زرقاوينِ.

وهكذا، راشداً صارَ، شاعراً

وليكنْ

بقوى واهنةٍ، لكنها عصيّةُ على الإنحناءِ.

وامرأةٌ ما، نافتِ الأربعينَ، سمّاها

حسنائي، وفتاتي الفاحِشة.

«أيها الإنسانُ الأسودُ!

أنتَ ضيفُ شؤمٍ

ذائعُ، من قديمٍ، صِيتُكَ هذا».

. . . . . .

وأنا ساخطُ، وأغلي بغيظٍ رجيمٍ.

ثم تطيرُ عصايَ، هاويةً، على خطمِهِ

وقصبةِ أنفِهِ.

وعلى نافذتي يؤرّقُ الشُروق.

آهٍ منك أنتِ، يا الليلةُ

ما بكِ، أيّتها الليلةُ، تهشّمتِ؟

وأنا واقفٌ تحتَ قُبّعتي.

لا أحدٌ، سوايَ معي.

وحدي،

وحطامُ مراياي.

تشرين الثاني 1925

هوامش:

الوحـي: كتـاب. والكلمـة الأقـرب لهـذا التعبـير هـو اللـوح، وهـو مـا يرصـد في حيـاة الكائـن ويكشـف بعـد موتـه، والمقصـود أن الانسـان الأسـود يقـرأ حيـاة الشـاعر كـما يقـرأ كتابـاً.

الإنسـان الأسـود: اختلـف النقـاد في تفسـيرها، فبعـض ذهـب أنـه رمـز المـوت، وآخـرون أنـه رمـز طـرّاق آخـرة الليـل الذيـن ينفـذون خلسـة حكـم اغتيـال أحـد مـا. ومهـما يكـن فقـد كانـت هـذه القصيـدة نبـوءة بمقتـل الشـاعر، علـماً أن السـلطات السـوفيتية آنـذاك أعلنـت انتحـاره.

أنطولوجيا الشعر الروسي الجديد:

كنـتُ آليـتُ أن أتقـدّم في النصـف الثـاني مـن تسـعينات القـرن المـاضي، باتفـاق مـع هيئـة تحريـر مجلـة شـعراء الفلسـطينية التـي نـشرت هـذه الأنطولوجيـا، مـن مغامـرة ترجمـة الشـعر الـروسي الشـاب آنـذاك إدراكاً منـي بـأن ملاحقـة تحـولّات القصيـدة الروسّـية، بفاعليّتهـا جماليّـة كانت أم إجتماعيّـة، تحـت وطـأة أزمـات عميقـة هـزّت أواصر الـروح والمجتمع الروسـيّين برمتيهـما، لا بـدّ سـتؤرّخ فنيّـاً للانزياحـات الروحيّـة والحياتيّـة معـاً لهـذه الفـترة العاصفـة، طالمـا كان الشـعر الـروسيّ، كـما عهدنـاه، ديـوان مجمـل التغيـيرات والثـورات والانكسـارات والأحـلام وخيبـات الآمـال والمنعطفـات التـي شـهدها التاريـخ والإنسـان الروسّـيين، متقدّمـاً بهـذا عـلى سـواه مـن ضروب الإبداعـات الروسـيّة الخلّاقـة.

ففـي الآونـة التـي تسـيّدت فيهـا التصـورات وأنمـاط التفكـير الليبراليّـة، وتسـلطّت الأسـاليب النفعيّـة عـلى أنمـاط التفكير وفـق مقتضيـات الحال التـي فرضتهـا السـوق، الأمـر الـذي قـاد بعـض الأقـلام لصناعـة أدبٍ يسـتجيب لمـزاج ينحـاز للقـادم مـن الغـرب بتصديـر الفكـر الفوضـويّ والفـنّ الغريـب عـن القيـم الروسـيّة العريقـة، إلا أن الشـعراء الـروس الجـدد، في غالبيتهـم، واجهـوا إعـلان «صنّـاع الأدب الجـدد» ممـن كانـوا يموّلـون «الثقافـة الإسـتهلاكيّة الهابطـة» بمـوت الشـعر، وظلّـوا أوفيـاء لتقاليـده، ومخلصـين لأدواتـه الإبداعيّـة. فلـم يكـن بمقدورهـذا العقـد مـن الزمـن أن يشـهد «موت الشـعر الـروسي القديم»، أو إعـلان القطيعة مـع صورتـه المجسّـدة في إبداعـات عظمائـه مثـل بوشـكين وليرمنتـوف وبلـوك ويسـينين وأخماتوفـا وتسـفيتايفا وباسـترناك وسـواهم، كـما أنـه لم يشـهد أيضـاً أي شـكل يُذكـر مـن أشـكال فـوضى تقليـد الشـعر الغـربيّ عـبر كـسر بنـى وأدوات التعبـير الشـعريّ الـروسيّ العريقـة، وظلّـت

أشـكال التجديـد الشـعريّ تتحـرّك في دورة العـوالم الشـعريّة الروسـيّة المنفتحـة في كافـة الأزمنـة عـلى التجريـب والتعـدّد والتطويـر.

وتأسيساً عـلى ذلـك، فـإن قـراءة متأنيّـة لشـعر تلـك المرحلـة سـتنحاز للاعتقـاد بـأن الشـعر الـروسيّ الجديـد هـذا حصّـن ذاتـه بذاتـه – بمـا تـم التأصيـل لـه بإنجـازات إبداعيـة خلّاقـة سـابقة مـن أشـكال أدوات تعبيريّـة وتصـورات وتنظـيرات جماليّـة فنيّـة مـن جهـة، وقـاد حركتـه في خلـق أنمـاط وأشـكال شـعريّة تلامـس مـا وراء الحداثـة ومـا تقترحـه مـن انزياحـات رؤيوّيـة وشـكليّة، وتسـبر روح التحـوّلات التـي مسّـت الزمـان والمـكان الروسـيّين، غـير منعـزل عـن حركـة الحداثـات الشـعريّة الإنسـانيّة برمتهـا. وبهـذا، قيّـض لهـذا الشـعر الجديـد أن يكـون حديثـاً في وقتـه، وجديـداً في الزمـن الشـعريّ طالمـا يحتفـظ لذاتـه بـكل عنـاصر الجديـد الشـعريّ وتفاعلاتهـا مـع المسـتقبل.

ولأنّ قـدري قيّـض لي أن أكـون شـاهد هـذه المرحلـة، وعايشـت وتصادقـت مـع جـلّ شـعراء هـذه الأنطولوجيـا، سـيما في سـني دراسـتي في معهـد مكسـيم غـوركي للإبـداع في النصـف الأول من تسـعينيات القرن المـاضي، فقـد كان لزامـاً عـليّ أن أتصـدى لترجمـة أبـرز شـعراء هـذه الفـترة بالـذات الذيـن رسـموا لوحـة متشـابكة ومتعـددة، بمـا خبـأت في طيّاتهـا مـن رؤى وخيبـات وقيـم ولعنـات وقـوى خلاقـة وهواجـس وسـواها، مـن مكنونـات روح الشـعر العظيـم، بحثـاً عـن مغامـرة نقـل هـذه الـروح الروسـيّة الخصوصيّـة إلى العربيّـة.

سفيتا كريلوفا:

مواليد عام 1970. خريجة معهد مكسيم غوركي للآداب. نشرت أولى مجموعاتها مطلع التسعينات. من مجموعتها «الجمعة السابعة هذه القصائد»:

-1

اعتدتُ على اسمكَ

كما صورتي في المرايا أو الماءِ.

لكنّنا كما هاءَ لي:

كلّ هذا ليس لي،

وليس لأجلي كلّ هذا.

ذاتٌ مبعثرةٌ؟ زنى الروحِ

التي غطستْ، على عجلٍ، في جسَدٍ غريبٍ؟

هذيانٌ بلا مغفرةٍ،

أم هي الخطيئةُ؟

أم أن الأشياءَ اختلطتْ على الربّ؟

وفي خلسةٍ عن خلاياي

لم أعُدْ أعرفُ اسمكَ الحبيب،

(أركبّهُ في العتمةِ كي أحفظهُ).

لا أرى في المرآةِ ما أرى

أحلامُ طفولتي رعبٌ أعمى.

- 2

الحياةُ كلّها

كالتزاحمِ حول المائدةِ،

التعجرفُ في البدءِ،

فاللهوُ،

ثمّ يضلّ عنكَ اختيارك:

مع من تتقاسمُ السريرُ!؟

فيما على عتباتِ الستّين

الصحوُ من السُكْرِ،

تذهبُ إلى اليومِ كما لشراءِ البيرةِ

وما حييتَ

تتقاسمهُ الآن، بالتفكّهِ ذاتِه، مع التفاصيلِ.

وفيما بعدُ:

الحياةُ غيرُ لائقةٍ كما ينبغي.

كلّ شيءٍ سوف يحدثُ.

تذكّرِ المائدةَ

والشايَ بالليمون.

- 3

تطولُ الليلةُ،

الليلةُ لا تنتهي.

ليستْ مصادفةً. لازمةٌ هذه الليلةُ،

سريّةٌ.

والروحُ وحدها،

تتقلّبُ وحدها على نمارقِ الأرقِ.

ووحدَهُ القمرُ المكتملُ،

وحدَهُ يعرفُ السرّ.

لماذا أنا الوحيدةُ، وحدي؟

والليلةُ تأخذكمْ كلّكمْ بين يديِّ النوم،

لا فتحُ الفألِ بالنجومِ على النافذة.

أراكم جميعاً. جميلونَ

بالأصفرِ الفاقعِ تارةً،

وبالأحمرِ الغامقِ أخرى.

الشيطانُ وحده يبدّلُ هيأتَهُ.

ووحدَهُ القمرُ المكتملُ،

وحدَهُ يعرفُ السرّ.

- 4

أموتُ.

يموتُ معي الكونُ حتى آخر النجماتِ،

العالمُ المختَلقُ على هزْءٍ

من الابتسامةِ، فالدموعُ، حتى الأحلام.

وإذا ماتَ معي عالمي

تفنى صورتُكَ أيضاً

تغدو سواك

يطوفُ الحشدُ حول عينيكَ

أزرق، أزرقَ،

أعمى، أعمى.

ولكي يعيشَ مثاليَ بعدي

بالذي أوهنَ الروحَ فيّ

سأحيا، وأحلمُ

العالمُ يُبعثُ في الحلُمِ.

فيتشسلاف أنانييف

مواليـد عـام 1962. تخـرج مـن معهـد مكسـيم غـوركي لـلآداب. بـدأ النـشر منتصـف الثمانينـات. مـن مجموعتـه «ضيـف» الصـادرة عـام 1993 هـذه القصائد:

- 1

الإطار الصغيرُ،

الإطارُ الفضيّ

في اليدِ الممحوّةِ بالأخاديدِ والانتفاخاتِ

بما أسرفتْ في تبذيرِ جمالها

ومضتْ، على خفّةٍ، في الممرّ الطويل.

في الممرّ الخريفيّ

روحٌ هادئةٌ مطمئنّةٌ

تفكّرُ بالذي مرّ

بما تعتّق في الذاكرة.

مشتْ. بشيخوخةٍ توارتْ

مع كلّ خطوةٍ تدنو.

خشخشتِ الأوراقُ،

تمطّتِ الغيمةُ في السماءِ،

لكنْ لا مطر بعدُ.

2 -

حليبُ الأمّ حزنٌ مضيءٌ

في قلبي،

كما في حديقةٍ بيضاء.

أخُرّ، يا أمّ، على صدركِ

بانتظارِ شيءٍ ما،

سحريّ.

في كلّ مدارجِ عمري

يتوقّدُ إلهامُ النار!.

فليشرقْ، إذن، وطني الحبيبُ

تحت رمادِ هذا الوقتِ الطارئِ،

المعتمِ.

- 3

تكِلُّ، لاهثاً خلف يومِكَ، تنهدُّ.

هكذا،

ولا قِطافَ كما تشتهي.

تخرّ على الوسادةِ، تفيقُ

خلفَ النافذةِ الثلجُ يلوحُ.

صورةُ أكتوبر تلكَ أرقّ،

غاليةٌ

صورةُ أكتوبر

احتضانُ السعادةِ الكآبةَ.

في المروجِ واقفةُ تلكَ الغِمارُ العابقةُ،

الأكماتُ العاريةُ تلكَ عابسةٌ.

نارُ التذكّرِ أصابتْ كلّ شيء.

- 4

صليبٌ أزرقُ على القبرِ،

الطيورُ تحلّقُ طُرّاً على المقبرة.

أعودُ

كما ينبغي،

للمثولِ بين يديكِ الكريمتينِ.

أمّي الحنونةُ! كيف تنامينَ؟

أتسمعينَ؟ من جديدٍ عاد إبريلُ

ماخراً كلّ هذي الزوابعِ،

عابراً كلّ العواصفِ.

صورتُهُ ملوّنةٌ على سريرِكِ الأبدِيّ.

تعودُ الحياةُ كما تشتهي من جديدٍ

أيتّها الأمّ ! هل تُصغينَ إليّ؟

ما تزالين

كعادتكِ،

تزورينني في الحلمِ.

الدمُ المجنونُ يطفرُ في الفودِ

علّكِ في لحظةٍ ما

على حينِ غرّةٍ، ترجعين.

5 -

أنتِ!

مخلوقةٌ من طراوةِ شمسِ الربيعِ

فكيفَ لمثلكِ ألّا تُعانقُ؟

تضحكينَ،

ومثلكِ الشمسُ تضحكُ

وتُصفّرُ الأوراقُ الخضراءُ.

كيفَ اكتوتْ بالشمسِ ركبتاكِ؟!

تصرخينَ: اخلعْ قميصكَ!

تتمرجحُ الثريّا الليلكيّةُ

كي تضيء مايو الجذلان.

تغنّي البلابلُ بما لا يُحَدّ

تغنّي

وعيناكِ في السديمِ الشفيفِ

لا تهبني السكينةَ طيلةَ اليوم.

- 6

الشاعرة الوحيدة:

كتبت عن المروجِ،

والغيومِ،

والضبابِ،

أنّ الأرضَ العتيقةَ مأخوذةٌ بالكآبةِ والخديعةِ.

بالحسّ الغلّابِ،

بالإشراقةِ،

والفصاحةِ ذاتها

ربّتْ موسيقاها، مثلما كرمة عنبٍ.

ينحدرُ الشالُ عن الكتفِ بلا فحيحِ ضجيجٍ،

المللُ الفاتكُ مسّ الركبتينِ البيضاوين،

بينما الشمعةُ صارَتْ أقلّ

واتسعتِ الليلةُ.

- 7

روسيا!

أُحبّكِ حتى الدموع

أحبّكِ في الطريقِ عبر الدمدماتِ والرنينِ

موكبُ الحورِ المتلألئ

قطارٌ، خلف النافذةِ، جارٍ.

أحبكِ كلّكِ. كلّ ذويكَ وآلكِ،

ربيعُكِ الدافئُ،

وخريفكِ المائلُ للبردِ.

عندما يتسكّع الحزنُ

والعتمةُ على الأبوابِ،

وحياتي في الأسرِ

عند موسمِ تساقطِ الأوراق.

عندما يتمدّدُ الأفقُ بما يحيطُ بنا،

والغمارُ كالأصنامِ منتصبةٌ في الضبابِ

طريقي بعيدٌ، وصليبٌ ثقيلٌ

لا يلطّخُ حبي بالخديعةِ.

سيل عمر

مواليـد 1973. مـن أصـل كازاخـي. خريجـة معهـد الآداب. عملـت محـررة في مجلـة الأجيـال الجديـدة وسـواها. مـن مجموعتهـا «أنـا أؤمن» هـذه القصائـد:

1 -

أعودُ إلى البيتِ.

أزرقُ ضوء المصابيحِ،

مرتعداتٌ مراكزُ التفتيشِ وسط الأكاسيا.

وبلحنٍ بسيطٍ، في الممرّاتِ المسائيّةِ

المرسومةِ بين صفّينِ من الأشجارِ

يُسمعُ ما نُسيَ من الماضي.

فجأةً،

تكتبُ شبكةُ الأسلاكِ هذا الاسمَ

على الشوارعِ، حيثُ صفيرُ قطاراتُ الليلِ

وريحُ سبتمبرَ آيلةٌ بخلاياها البكرِ

لاقتحامِ دخانِ أغسطسَ المرّ.

......

الموسيقا تعجّ في الزوايا،

بقايا دفءِ الصيفِ تصطلي، فجأةً، على وحيِ الكمانِ،

تتعبُ القطاراتُ،

تضيءُ الشوارعُ برمشةِ عينٍ،

تطلقُ صفرتَها الأخيرةَ،

وتنسلّ إلى عنابرِها.

- 2

إلى ضحايا وقائع سبتمبر في ألماتا 1986

مرحباً وطني.

ولكِ التحيّةُ أيتها العاصمةُ.

وطني!. دعكَ. عنكَ.

لا تقطبِ الحاجبين المسوّرَين بالشيبِ،

ودعني أرتوي، بعد هذا الطريقِ الطويلِ، من النهرِ،

وافرشِ الميدانَ بالجوخِ من أجلي.

مرحباً وطني.

ولكِ التحيّةُ أيتها العاصمةُ!

وطني، اهدِني حلميَ الصباحيّ

ربما، على عجلٍ، ينفجرُ الخطابُ المفرقعُ

المفاجئُ برنينِ الهاتفِ.

. . . . . .

عرفتُكَ يا وطني النيّئ

برطانةِ شفاهِ العذارى،

بطبيعتكِ الشحيحةِ، الشجيّةِ.

أنا أذكرُ كلّ هذا،

وأنا أصلّي.

أصلّي، كي تُوفّقَ، يا وطني العذبَ

وبالهتافِ المفتوحِ، الضئيلِ

يسحُرني، بالمستحيلِ المرعبِ، جمالكَ

يحاصرني.

بخطى الرسولِ الخفيفةِ

أقفُ على عتباتِ بيت الله

بروحٍ تتجلّى، وابتسامةِ الحكيم.

- 3

عندما نعشقُ، الحبّ

يُدركُ هذي السماواتِ.

لكنّنا، مطمئنينَ، نبكي

على راحةِ الحبّ

معتصمينَ بوجهِ الحبيب.

وفي لحظةِ الموتِ هذي

قَدْ نشتهي الموتُ هذا معاً.

4 -

هيبةُ الشعاعِ،

غضبُ النهرِ،

ظلّ الزمهريرِ

ليلةُ الشبقِ المندّى

تدور.

برودةُ الأيدي الملاقياتِ، المودّعاتِ،

الكرةُ الأرضيّةُ تحتي

تدورُ.

- 5

بالحزنِ المكينِ

تشحبُ الغيومُ، بالحياءِ المُريبِ

تتوارى الغماماتُ الرخواتُ

لغماماتُ الكسولاتُ،

رائحةُ الغاباتِ الموحلاتِ الغلّاباتِ

بالقلقِ الناشبِ

مالتْ عليّ من ظُلمةِ الوجود.

الذؤاباتُ اندلعتْ، وخبتْ.

ذؤاباتُ التذكّرِ

الغريبة، متلبّدةً، تنطفئ

دبّتْ على فروعِ الذاكرة.

أندرانيك نازارتيان.

مـن مواليـد 1967. روسي مـن أصـل أرمنـي. خريـج معهـد مكسـيم غـوركي لـلآداب. أدار موقـع «شـعر». مـن مجموعتـه «الثلـج «، و «موضوعـة لـك» هـذه القصائـد:

- 1

إلى زوجتي السابقة

لم يكنْ شباطُ كذاكَ

لم يجئ شتاءٌ كذاكَ على هذه الأرضِ.

الشتاءُ الضاري

كأنّما كان يعرفُ

منذ بدءِ الجموحِ والتصوّرِ، أفتى:

لن يكون لأحدٍ هذا الغفران

لخائنِ الآخرِ المُشتهى.

وسيحلّ عَلَيْهِ:

. . . . . .

أن يعضّ الثلجَ من ألمٍ،

ويهربَ من نفسِه في اقتفاءِ الخلاصِ

في الليلِ، في القطاراتِ،

على غيرِ هذْي الجهاتِ، أو المواقيتِ

بصمتٍ، مع الراحلينَ المخمورينَ

وشبحٍ في الأماكنِ الموحشة.

لا الكحولُ يكفي، لا النار،

ولا الهواءُ

للحياةِ

حتى السحر.

كوابيسُ «غريت» الطفليّةُ

تعثرُ في الغربةِ الصمّاءِ عليّ.

. . . . . .

أنا الباحثُ عن الحيّةِ الوحيدةِ

النابضة

في رقبتها عروقُ الحياةِ.

الحديدُ يطرقُ رأسي الضاري،

مرضي الوحشيّ،

الذئابُ تعوي.

وإذا مِتّ في الفجرِ

لن يكون هناك، إذن، ألمٌ

أو حبّ على هذه الأرض.

- 2

فلنَطِرْ إلى كندا

أشتري طائرةً، وأسافرُ

مع اليهوديّ الأحدبِ المهووسِ إلى يهوذا

اللذَّين ما يزالانِ في انتظارِ المرتديلا وكرعِ الكحولِ

وكلّ الأساطيرِ الشعريّةِ عن آل فرسايَ الأشرارِ

وشاطئِ سان فرانسيسكو.

سوف أذهبُ، والله، تحتَ السماء

وسوف أفكّ اللغزَ

من المنحوسُ في هذا النحسِ:

إسباتِيّ يطاردُ الزعيمَ الحزبيّ، والكُبّةُ

تلاحقُ الشاعرَ الديناريّ في الشقّةِ المشتركةِ السقيمةِ.

......

في المريولِ المُخاطِ له تبقّى ما يُرتَقُ،

وشُحّهُ أشبه بيأسِ النحاسِ الذي لا يُحلّ،

كسرةُ خبزٍ

والجارةُ الوحيدةُ لليلةٍ واحدةٍ،

كسرةُ خبزٍ

وقطعةُ دهنِ خنزيرٍ رقيقةٍ مقطّعةٍ بعنايةٍ فائقة.

وفي الصباحِ،

سيخرجُ، مثل الربّ بعد أيامِ اكتمالِ الخَلقِ

ممسكاً رأسَهُ،

ضارباً نفسَهُ بصدرهِ الأبيضِ،

دابّاً الصوتَ في وجهِ هذه العاهرةِ الصمّاءِ:

منِ الحكمُ اليومَ؟

. . . . . .

ثمّ..: «اسمعي، هذا الشعرَ»،

ويبدأ:

من أخدودِ النفاياتِ نطيرُ إلى كندا

مع اليهوديّ الأحدبِ المهووسِ إلى يهوذا

اللذين ما يزالان في انتظارِ المترديلا وكرعِ الكحولِ

وكلّ الأساطيرِ الشعريّةِ عن آل فرسايَ الأشرارِ

وشاطئِ سان فرانسيسكو.

- 3

نهارُ العاصمةِ، اليومَ، عاديّ تماماً،

بما يُفجِعُ.

لا ريحَ، كتلكَ التي وقعتْ قبل هذا

في مثلِ هذا الوقتِ،

متأرجحةً على الجسرِ المُرتجّ

نافخةً الأشرعةَ، حارسةَ الكرملين.

النهارُ الحكوميّ،

نهارُ حكّامِ المدنِ الثلاث - الجرذان

الذين أتوا، كما نتذكّر، لكنّهم

لا يستطيعون الرحيلَ

بقوّةِ أنهم امتصّوا قوّةً

ليس لها أن تنتشلهمْ

وليس لهم أن يأخذوا بيدها

. . . . . .

النهارُ، حيثُ أفقتُ

منتصفَ اليومِ، متكئاً على الحائطِ المائلِ

كالمتفجّرِ من تحتِ الماءِ

بي رغبةٌ أن أعي أين أنا.

النهارُ، حيثٌ لزاماً عليّ أن أفكّر بابني،

وبكِ

عنواني، كما قلتُ من قرنٍ، أنا.

وأنا أهزأ من هذه الكلماتِ،

أتبسمُ، أرغو

إلى أينَ..

وأنت الآن تحتضنين أغلى صديقٍ في ماضيّ.

......

وهذا ليس يعني..

النهارُ، حين لا أريدُ

لا أريدُ جدوى أيّ شيء

خاصةً هذا الخَبْطُ.

تمرّ الأبديّةُ، الأبديّةُ ذاتُها على الأقلّ

وسيكون عليّ النهوضُ،

الإفطارُ، ثمّ الصلاةُ،

الخروجُ من البيتِ،

الوصولُ إلى المترو،

البصاقُ على الرصيفِ،

الهبوطُ

انتظارُ الريحِ،

ثمّ السجود.

- 4

يفنى الشتاءُ الآن. كما من قبلُ

أخافُ من أحلامي،

العواصف، والظلال.

كأنّما يهِيءُ لي :

لا مفرّ من التحلّقِ في الكآبةِ

نحن نهوي على الثلجِ،

السريرِ الكرستاليّ.

لا خلاصَ لمن - من الخلَنجِ والدمّورِ

للحبيبِ اللوبيائيّ الذي اختلقتِ.

وتنعسُ الليلةُ،

الليلةُ تموتُ،

تتعبُ من الأحلامِ،

ويبقى المصيرُ،

تظلّ النهاية.

. . . . . .

لا الصيفُ،

لا الوجوهُ،

لا الأصواتُ.

تذكرينَ أيتها الحبيبةُ

العواصفُ تطيرُ

تلمِسُ القرونَ..

أيّ بردٍ!

اقتربي براحتيكِ. تتجمّدينَ

والثلج..

5 -

لا تكنْ عليّ عدوّاً،

احتشادَ الحوادثِ والخطوبِ.

هكذا بالغوايةِ كلّها، ذاتِها

زمنُ الخريفِ هذا في غروبٍ.

يا إلهي!

أنا الذي أحببتُ هذه المرأةَ

أذكرُ

أحببتُها

اجعلني أذكرُ

منتصفَ الليل. المرأةُ هذه تدخلُ

جالبةً البريّةَ على راحتيها، وفي صوتِها،

مالكةً بيديها حركةَ الرياحِ، وفي صوتِها

كانت وِحدة الظلّ الميّتِ

......

ظلال الظلال.

كانت عيناها ذاتُهما.

وفي الليلِ، رحلتْ جامحةً

حملتْ من هنا أفراسَ البريّةِ..

منتصفَ الليلِ هذا

أذكرُ،

الأخيرُ

الذي ارتحلَ معها..

ناديتُها باسمها

تلك التي جاءتْ

جالبةً على راحتيها البراري الجبليّة.

إيلينا إيسايفا

مواليـد 1966. خريجـة كليـة الصحافـة في جامعـة موسـكو الحكوميـة. اشـتهرت بعـد ديوان «بـين العـالم وبينـك» 1992، و»شـباب وجميلـون» 1993، و «لقـاء صدفـة» 1995، و»دمـوع فائضـة» 1997.

- 1

لِلَمسِكَ، يا سيدي، لِلَمسِكَ

في العتماتِ ميمّمةً شطركَ.

مفاجِئةٌ جرّةُ القلمِ على الصفحةِ،

النظرةُ عابرةٌ،

والتلويحةُ طارئةٌ.

هناكَ، حيثُ الضوءُ،

النهرُ، والأكمةُ،

حيثُ الأيّامُ تنقضي بالغبطةِ المطمئنةِ.

لِلَمسِكَ، يا إلهي!، لِلَمسِكَ

كن رحيماً، ابسطْ يديكَ.

- 2

لتغفرَ

أنّ أتربةَ الطريقِ لم تنبسطْ لقدميكَ،

ناكرةً جميلكَ.

لا أطيقُ احتمالَ أيامِ «راخيلَ»،

وبالجسدِ الفتّاكِ أرمقُ «ليّا».

كيف انجبتْ لكَ الأبناءَ،

شوتْ لكَ اللحمَ على النارِ،

رقّتْ لكَ في الليلِ، هاءتْ لك.

وإن شئتَ، فلتحِنّ إليّ، وأنتَ معها،

حياتكَ تجري دوني، أخرى.

. . . . . .

نجومُ المساءِ خبتْ،

أحدّق، بلا رمشةِ عينٍ، بها

نظراتي تلوّحُ لها.

ولئلا تتضّور روحي من ألمٍ في الصحارى

يهزأ الأطفالُ بالمرايا العمياءِ.

لتغفرَ لي

ربما من كبرياء

اصطفيتُكَ عليّ.

- 3

لا تعيقوا أحبّاءكم أن يعيشوا

الأمرُ كلّهُ أوضحُ مما يُرى.

إنما الأمرُ صعبٌ تماماً.

بَرَدَ الحبّ؟ مُرّوا إذن جانباً

دونكمْ هنا الإزدحامُ غزير.

لا تنظروا بعينينِ حزينتينِ،

لا تسكتوا بالصمتِ المُخلصِ،

أطلقوهم بإحسانٍ، اخرجوا وحدكمْ

تاركينَ الهاويةَ خلف ظهوركمْ.

كما لو أنكم دون الهواءِ، تختنقونَ

لكن، وأنتم تئدونَ الكلماتِ الأخيرةَ

لا تمسكوا بأيدي من تحبّون

خشيةَ أن يغرقوا معكمْ.

......

شيء لا يؤوّلُ، ليسَ لهُ ما يبرّرهُ

يا إلهي! من أجل ماذا؟ ما هذا؟

لا تعيقوا أحبّاءَكم أن يعيشوا

موتوا لأجلِ سكينتهمْ.

- 4

كان أكتوبرُ ذاك، وأبريلُ كانَ

والمطرُ الأليفُ، كرحمةِ ربّ كريمٍ،

وكم مرّةٍ فُتِحَ البابُ،

كمْ مرّةٍ أُوصِدَ البابُ.

وكنتُ أشبه برمادٍ

مُذرّى، باردةً

وكنتُ أطيرُ فوق موسكو

وكأني أحومُ فوق قبري.

لكن، حتّى وأنتَ تسمّمُ روحي

غير مرّةٍ، فلا بدّ، ثانيةً، سوف تقوى.

أنا قُمتُ من الحبّ

كمن قامَ من بين الرمادِ.

5 -

«وهذا أيضاً سينقضي»*

هكذا قالَ سُليمانُ،

وإلى اليومِ، ليس لمخلوقٍ

أن يخرقَ هذا القانونَ العتيقَ.

وهذا أيضاً سوف ينقضي -

السعادةُ، والحبّ.

فامتثلْ، أوصيكَ، لهذا،

وتعذّبْ بهذا، ولا تعصِ، أرجوك.

وحينَ تنحدرُ في الحزنِ إلى الدركِ الأسفلِ،

لا ريبَ ، سيبقى في إثركَ، دربٌ وحيدٌ فقط:

من قمّةِ السوءِ، إلى رحابِ الأفضلِ.

إلى أين بعد هذا؟ لا جهةٌ بعدَنا كي نلتفت.

* *ثمة اعتقاد يردده الروس لتجاوز الأزمات والخطوبِ، بحثاً عن عزاء أو مواساة، بأن النبي سليمان عليه السلام كتب على خاتمه «انقضى كل شيء»، ويضيفون «وهذا أيضاً سوف ينقضي».*

إيرينا يرماكوفا

ولـدت في مدينـة كيرتـش (القـرم) 1951. أهـم مـا نـشرت في تسـعينات القـرن المـاضي مجموعـة «الريـف»1991، «كـرم العنـب» 1994، و«الكرة الزجاجية» 1998.

1 -*

مضتْ كلّها.

كلّ شيءٍ مضى.

وهذا الجنوبُ، وجبالُ القرمِ هذي،

والشمسُ هذه النقيّةُ عبر الفصولِ.

أنا الآنَ

مثل المرايا.

حامَ غبارُ الطلعِ،

السماءُ احتشدتْ فوق كيرتش،

سأسمّي الكلامَ بما أشتهي

أنا التي أتيتُكَ حتى العتبة.

. . . . . .

أحفظُ الموجَ،

الموجَ الطلْقَ حسبَ مشيئتهِ

باللونِ النبيذيّ، عن ظهرِ غيبٍ.

لا الأبديّةُ

يا إلهي!

ولا الألمُ الفتّاكُ

يُخجلاني.

- 2

أقولُ،

عشنا طويلاً على هذه الأرضِ

ملتفتينَ إلى القرونِ.

على الماءِ اللاهثِ في الرمادِ

نسلّي بعضنا بالترّهاتِ.

إذْ ذاكَ قلتَ لي:

الألمُ الضاري ينهشُ الراحتينِ

الراحتينِ اللتينِ تضمّانِ القرونَ.

كم من العويلِ يكفي

أيتها الذهبيّةُ

التي عرجتِ في الليالي من نُقْرةٍ في الجليدِ !

ميّتٌ هذا المكانُ

الثلجُ هنا لا يذوبُ

وأنا أرضيتُ اشتهاءاتِك كلّها.

المدينةُ العاريةُ،

. . . . . .

الحجرُ الأبيضُ القابلُ للاشتعالِ

في أيّامِ موسكو، النهرُ

في الحربِ المكدِّرةِ

تنعطفُ السمكةُ بزعانفِها القيصريّةِ

ترجو لي ليلةً سعيدةً.

تموّجُ النهرِ يهدهدُ المدينةَ،

- 2

تغفو أحجارُ الغرانيتِ على حوافّ السريرِ الجليديّ،

لكنّ سمكةً قيصريّةً صغيرةً تحدّقُ بي.

السُميكةُ

بعينينِ ذئبيّتينِ،

من نقرةِ جليدٍ متكسّرٍ،

تبلطعُ الغلاصمُ،

تتهافتُ على نافورةِ الجسرِ

مكسّرة الأضواء.

والقطارُ المتأخّرُ، بالكادِ، ينجو بالعبورِ،

بقايا النجومِ المجروشة في الماءِ الأسودِ.

. . . . . .

قليلٌ، إذن، كلّ هذا

الذئبةُ

تقصّفُ الجليدَ باندفاعتِها

تثبُ بالحصافةِ ذاتها.

ومضتْ على أحجارِ العاصمةِ البيضاء

تعجنُ على الإسفلتِ عصيدةً حمراءَ ثلجيّةً.

إيغور يمليانوف

مواليد عام 1963في مدينة ياكوتسك. تخرج من جامعة موسكو المركزية. له الكثير من القصائد المنشورة في المنابر الثقافية الروسية المتخصصة.

- 1

الزمنُ - المالُ

المالُ - الأشياءُ.

المالُ وجبةٌ لذيذة.

بالمالِ تطيرُ عقولُ النساءِ،

المالُ ضالّتُنا أبداً.

الروبل، الدولار، الفرنك، الينّ

الشِلن، الجنيه، الريال

للتبادُلِ. بنا حاجةٌ للكثيرِ الكثير.

ولا شيء يبقى إذا شحّ

تكسرني الحياةُ بقسوتها

لكنْ، ما دام ثمّة وقتٌ

ثمة أصلٌ.

الوقتُ عملةٌ صعبة.

- 2

ربما في مكانٍ ما أكثر دفئاً.

كم بعيد هذا. في مكانٍ ما.

كلّ شيءٍ هنا، عندنا، ليسَ كما ينبغي.

أُميلُ القلنسوةَ على الجبهةِ،

المعطفُ المطريّ يرعدُ في الماءِ كصفيحةٍ فارغةٍ،

دخانُ السجائر على الإسفلتِ يتلبّدُ بالمطرِ.

وإذ تلتقي عيناي بمواطنةٍ مبلّلةٍ

أقولُ لها بنظرتي:

أبداً،

لن أذهب معكِ إلى أي مكان.

- 3

لن تسألينني بعد هذا أين كُنتُ،

ليس يعنيكِ، أصلاً، أين كُنتُ.

وإذا سألتِ، فسوف أجيبُ.

نسيتُ جوابي على سؤالكِ هذا.

لن تصرخي، بعد هذا، من الشبّاكِ

أنكِ تنتظرينني.

وإذا ناديتِني، فسوف ألتفتُ،

لكنني بصمتيَ المتعجرفِ، أنتحي جانباً.

لن نتبادلَ الثقة العمياء، بعد هذا

لن نتقاسم الحبّ،

ولن ينتظر الآخَرُ منّا الآخرَ.

. . . . . .

تيبّستِ الأنهار من حولنا،

شقّتِ الأصابعُ في داخِلها،

فيما السماواتُ، تحت الماءِ، غاصتْ

بعيداً إلى القاعِ،

ملوّعةً الأنهارَ المُقيمة.

وأنا الذي رأيتُ فيلماً مرعباً

خللَ الرعشةِ الوحيدةِ للأصابعِ الباردة.

كأن الأسماكَ عامتْ في القاعةِ،

عالقةً بالوحلِ. أصابني الضوءُ

وبالكاد، تذكُرُ؟، عرفتني.

أتذكُرُ، كدتُ أحبّكَ

أيها الملاك! أتذكُرُ، نحنُ

من بعيدٍ، احتفينا بالحياةِ في انكساراتِها.

. . . . . .

كيف، بكلّ هذا الحبّ، اقترفنا الحماقاتِ؟

وكيفَ، بلطفٍ، قتلنا بعضنا؟

هناكَ، والآن، يفيض الماءُ

عابراً الهدأةَ الأبدِيّةَ،

وحتى لا أُمسّ بالرعبِ القتّالِ

تواري عينيّ بكفّيكَ.

بالكادِ، بالصبرِ الجميلِ، نحتملُ،

الشموعُ مطفأةٌ وراء ستائرِ النوافذِ

ووحيداً

بقي بيتُنا الميّت.

ناتاليا روجكوفا

ولـدت عـام 1963 في موسـكو. تخرجـت مـن جامعـة العلـوم الإنسـانية. أصـدرت «شـجرة المقاصـد»، «رنـين النجـوم»، «ختـام الكرنفـال»، و «عـلى عتبـات عـصر غامـض».

- 1

يخالُ لي

تقطّع الوترُ في مكانٍ ما،

أفي هذا العالمِ؟ لستُ أدري.

وخلف القطارِ، بالجنونِ العظيمِ، القمرُ يلهثُ

والسهلُ الأبيضُ بلا ضفاف.

وفي الشبّاكِ المنحني على حافّةِ الطريقِ

رمشَتِ النار،

وانقشعَ الأفقُ الجديد.

لم أُحلّقْ في الطفولة

بالكادِ، في الحلمِ

وكثيراً ما حلمتُ بالسقوطِ في الهاويةْ.

- 1

- 2

بالصبرِ الجليلِ

الخيطُ الأسودُ مرّ على الورقةِ البيضاء

واثباً، بالحماسةِ كلّها، إلى الأعالي

فاحترق تماماً،

كالحياة ذاتها.

النجاحات كلّها. النحسُ كلّه

في هذه الطريقِ الوحيدةِ

تلزمكُ السنونُ كلّها كي تصير مثالاً.

- 3

كمْ جميلٌ أن تفيقَ، وتعرفَ

أن أحداً لم يدسّ شيئاً مريباً تحت الوسادةِ.

كم رائعٌ

أن تُخرج من السَقيفةِ

مِزلاقَ طفولتِكَ القديم،

تمتطيه، مرتقياً درجاتِ السماواتِ

تلوِّبُ هناك عن بقعةٍ للروح..

لكنّ شيئاً ما، فجأةً، احترقَ، مثل الزَنبورِ.

هذه الطلقةُ خرمشتْ أُذني.

- 4

ولّتِ الليلةُ،

انطفأتِ السماءُ،

وعلى كُثيّباتِ الثلجِ الأشعّةُ زرقاءُ،

تدورُ ببطءٍ

حارقةً من الشمعةِ الراحات.

كان اليومُ محضَ عابرٍ، دون جليدٍ يُذكرُ

حتّى أننا لم نودّعهُ

ولهذا، لم يكنِ الأفضلَ،

يا سيّدي

الفضلُ لك!.

ناتاليا توتشيلنيكوفا

مواليـد موسـكو عـام 1969. أصـدرت «أنـا طاهـرة أمـام الـرب»1995، و»قـل لي أنـه لا يوجـد مـوت» 1969.

- 1

كم وثِقنا، عبثاً، بالتفاصيلِ

أكثر مما حَيينا.

واعتصمنا، بالكثير من الهذيان، بالمصيرِ-

مصيرنا.

وعلى كوبٍ من الشاي، قلّبنا،

بالحديثِ الطويلِ، أقدارَنا.

خسرنا الرهانَ،

وانطفأنا في الصراخ.

. . . . . .

فشلنا، بما يِغيظُ،

اعتصمنا، بما لا يُطاقُ، بالجنون

وطِرنا، تطيّرنا

على أوتارِ الجيتارةِ

أجهشنا.

هزئنا بالذي لا يجبُ،

اخترقنا ما يجبُ،

اتكأنا

على الوهمِ الغريبِ، ضحكنا.

يا للفجيعةِ! لا أثر يحاكينا

لا نؤخذُ مثالاً، أو بمثالٍ.

لم نترك على هذه الأرض ما يدلّ علينا،

نتلاشى

غير أنا..

غير أنّ..

- 2

وبيَ الشوقُ، والهياجُ

الطمأنينةُ، السمّ.

لا تعدْ بي إلى ما مضى

لا تعدْ بي إلى ذلك اليوم

أيّ يومٍ،

حيثُ الجليدُ يكفّنُ النهرَ.

عندما تستفيقُ خلف النهرِ

روحُ الفلقِ، الكاهنة.

لا تُعِدني إلى السكينةِ،

أنا لا أريدُ عذراءك.

. . . . . .

قدري، منذُ بدءِ الخليقةِ،

مُغنّى ببشائرِ الأيّلاتِ.

وحدَهُ الدمُ

والعرقُ الساحّ فوق الجبينِ،

وكلّ شيء سوفَ يبدأ.

كلّ شيء من جديدٍ، بالوترِ الرقيقِ

كالخنجرِ الحادّ.

إبقَ في جهة ما،

واعرضْ عليّ الضيف.

لا تبكِ، لا تخشَ الخيانةَ

تلك عادتُنا

واذكرني، ضاحكاً، بالأكمةِ النشوى.

- 3

معبدي مسوّر بالصفصافِ

مهجورٌ،

الذؤاباتُ الداكناتُ تلمعُ

ويحترقُ المذبحُ، مذبحُهُ.

مستسلمٌ، مسالِمٌ.

انحنِ على الركبتين

أمام الإلهيّ هذا، الأبدِيّ،

لا تمِلْ بالجسدِ المخادعِ،

وليس لزاماً عليكَ أن تفنى بالصيام.

الوصايا. وصايا التُقاةِ هنا

مغبطةٌ ويسيرةٌ

الشرائعُ ليست صارمةً لدينا

وبسيط هو الطريقُ المقدّسُ،

الصراطُ المستقيم.

. . . . . .

يا أخي !

هل جئتَ بأضحيتِكَ،

الأعلى من الصلوات؟

تنمو الأكاسيا عند البوّابةِ

وسطَ ألواحِ القبورِ.

جئْ. اقصفِ الغصنَ

وارمهِ في النارِ،

وتقبّلِ الاسمَ الجديدَ

وابنِ المعبدَ الجديدَ.

أرسيني كونيتسكي

مواليد 1968 في يكاترينبورغ. خريج معهد مكسيم غوركي للآداب. له عدة مجموعات، من «اجتياح» هذه القصائد.

- 1

لا أقول لكِ أن ابقي،
ولكنني أقول: لتغفري لي.
الموجُ النهريّ ليس يدوم طويلاً في النائباتِ.
ليس للحنينِ الغلاب أن يقهرنا أبداً.
ولا طاقة للجبينِ على كسر شواهدِ القبور.
إنّما الماضي ليس علماً من نارٍ
هو المِلحيّ خيّم فوق آمادِ التذكّرِ،
الحيّ في الروح
صاعقةً مفاجئةً، الذائبةَ في طير الخُطّافِ
المتغَضّنةَ على عتبةِ الملجأ.
. . . . . .
لكن، إذا تفرقتِ السُبلُ بنا
لا أقولُ أن ابقي، بل أقولُ
لتغفري لي.
اغفري، كما منتصف الليلِ، سهامَ القبيلة.

أميرتي!

أنتِ التي دنوتِ كثيراً من عتباتِ البابِ

بوجهكِ المطليّ بالحُمرةِ.

ليس لي.

ليس من أجلي

اليدُ الرهيفةُ ممدودةٌ

بالعِقدِ العتيقِ.

......

ليسَ من أجلي،

لكن في الميقاتِ القديمِ

تباطأتْ عقاربُ الساعةِ.

بالدقائقِ تلكَ

سوف تُعدّ السنون إلى أبدٍ !

صاحَ الديكُ،

تمطّى الدبّ على شجرةِ البلّوط.

صِحتُ: سقطَ العِقدُ!

تدحرج بالرنين المبين.

نُعاقَبُ بالنزوات.

......

لا أقول لكِ أن ابقي،

بل أقول لتغفري لي.

أنا الذي أكرِمتُ باستدراج معصمكِ الملكيّ إلى شفتيّ

في الضباب الطاغي،

ميّزتُ الدبّ - الكِدِيشَ،

على ساقِ الحذاءِ المهروسِ،

المندفعِ بالأزرق.

هل تذكرينَ؟

ها هي بَعجَةٌ في الصدغِ

الأثرُ الدمويّ تجلّى في الرملِ

تلاشى،

بالقدرةِ المحرومة.

لن أتفسّخَ، ما دمتُ، إلى أشلاء منخورةٍ.

. . . . . .

يا حمامتي، يا فتاتي، يا أميرتي!

عليكِ أن تعمّري بعدي

ليسَ أكثرَ، من طيرانِ السهمِ إلى الهدفِ.

التمع النجمُ المذنّبُ

خرّ اللجامُ المميتُ

وخرستِ الشفاهُ في القُبلةِ.

تهيأتُ للموتِ عند طلوعِ الفجرِ

لكنني، عقدتُ، كما من قبلُ، أمري

على أن أشبعَ ذاكرتي، قبل موتي،

بسُمومِ الجثثِ المتعفّنة.

ها.. الحرّاس غفوا في الهدوء المعَدّ

وجئتِ، كما استطعتِ بما استطعتِ، إليّ

بصمتٍ

أرى العبدَ يجري إلى جوارِكِ.

- 2

كيف أحبَبتَ، تعرفُ، إذ تخونُ الحبّ.

فامضِ الآن

كن ريحاً، كن رماداً أو ظلاً

بالليلكِ الضالّ أنقرْ على شبّاكها

ما دام الدمُ على الشفاه لم يسودّ.

ما دام هناكَ، بكَ المشتهى يتنفّسُ

يستعجلُ، ما زال، القرنَ إلى الليلة المشتهاة،

ما دام كلّ شيءٍ لم يخمدْ في هذا السكون اللانهائيّ،

لا أحدٌ

كي تغفرَ له.

لا مكان

لتهربَ.

......

ما دام لم يمتْ بكَ كلّ شيء

عُضّ ذاتكَ حتى الدموع،

حتى التشنّج،

والشهقة الأخيرة:

سوف تخرجُ هي ذاتُها من مطلعِ البابِ،

ويُختتمُ العصرُ،

وإلى عشّها سوف تؤوبُ السنونوةُ من الجنازة.

لكنّها لا تعي كلّ هذا،

تدورُ حول ظلالِها، وتبكي.

الحبّ لا يعودُ إلى ماضيه

فامضِ الآن

مسّدِ الأمواج.

3 -

في طريق الحرير:

على آلافِ الكيلومتراتِ المكتوبةِ بالذاكراتِ العتيقاتِ

سبَتني الكآبةُ.

وفي الحنجرةِ وحدِها،

الضارعةِ للريحِ اللزجةِ،

لوّحتِ الظهيرةُ الهاجرةْ.

الشفتانِ

لأجل المنادى المقدّس

الاسمِ الأجلّ،

جعلتا الخطوةَ المعانية

تمرغتِ الجباهُ بالرمالِ

ومن دُبُرٍ

بالصوتِ المُقطّعِ

نهقَ البغلُ

. . . . . .

ومضينا كلّنا

بقعتِ الشمسُ الظهورَ المنحناةَ،

لكنّ الريحَ ذبلتْ بالعشبِ المرّ

المعتصمٍ براحتي أنثى العُقاب.

وبرمشةِ العينِ

أسدِلَ المساءُ فوق تلالِ الرملِ

في بريقِ السرابِ.

. . . . . .

هي ذي آسيا!

مُرضِعةُ الأبناءِ الروسِ الصاهلينَ،

المُرضعةُ الغضوبةُ،

أنثى الفِطنةِ المتفرّسةِ بالليلِ،

الجبابرةِ العُتاة.

هنا في البركةِ الصدئةِ تُشترى المهورُ.

هنا كلّ أغنية فرست كاملٌ.

آسيا!

مآذنكِ العالياتُ، النواقيسُ

لكنّها دون صليبٍ، فحسبُ.

أسواقُكِ نضّاحةٌ بالسفرجلِ،

وبالطميِ تفوحُ السواقي.

. . . . . .

وفي الفجر أعوي على ابن آوى

ينحلّ الصراخُ.

فليكن، لدموع الجميلاتِ

من القُرى المكدّراتِ

على منحدراتِ الجنائنِ الغائرةِ

أن تقطُر: الصدحُ الجنُوبيِّ

لي، الإستغاثةُ الناضجةُ غامضة

حبّي تجلّى خاتمةَ الضيم

وماذا بعدُ،

آسيا!

تعدّدي في السديمِ !

وداعاً. أيتّها الجهْمةُ القطوبُ!

أعود، بالطريقِ الميّت، إلى الأرض الحيّةِ

ما دام اليقين سموحاً بعد،

وثمّة حولٌ في القدمين

. . . . . .

ستأتيني رمالكِ في الحلمِ

في ليالي الحمّى الباردة

. . . . . .

آيدار حسينوف

مواليـد 28 فبرايـر 1965، في مدينـة أوفـا عاصمـة بشكيرسـتان. خريـج معهـد مكسـيم غـوركي لـلآداب. كاتـب مسرحـي ومترجـم. أصـدر مجموعـة «آخ» الشـعرية عـام 1991. وأنطولوجيـا الشـعراء الـروس «سـطور القـرن» 1995-1997.

ما الذي يتردّد هناك، وهنا، سوى كلمةِ «ضجر»

قاطنةِ المدينةِ،

المدينة التي سوّيَتْ من عشبٍ، وأصواتٍ، ورمالٍ.

سنقتفي، على كلّ حالٍ، وليكن ليس عمّا قليلٍ،

هذا المُحالَ،

هذا الذي يقولُ: وداعاً

ليس في حقيبتي محض عتاب.

ما الذي أقولُ لكَ؟

أيها الإنسان

المنثور كإبرةٍ في بيادر مهيأةٍ للقِسمةِ

خلفها يسقطُ الثلج.

ما الذي يجري في عالمِنا هذا، الأبيضِ؟

يُمْكِنُ اختلاسُ النظراتِ، بالدهشةِ العمياءِ، فحسبُ.

أنا أُحبّكَ.

أيها الإنسان، لكنها كلمةٌ فحسب.

هذا سهلٌ،

حيث تستلقي الأعشابُ الجافّةُ

تسترُ رأسي،

تماماً كما يستحيلُ تبديلُ الأمكنةْ.

ما الذي أحتاجه أوّلاً؟

ربّما أن أكون أسيرَ هذا،

ربّما.

حين تتدثّرُ قاطرةُ المترو الأخيرةُ بالظلامِ

من العاصمة،

كم رائعٌ أن تقفَ منهكاً على هذه الهاوية.

حزنُكَ الغلابُ بلا محضِ جدوى

وبالرقّةِ المُستطاعةِ

تغفرُ لمن..

-206-

بالتلالِ، بالوهادِ، بالأنهارِ

المحرومةِ من حريّةِ الجبالِ.

بالجداولِ، بالمَسيلِ، بالمنحدراتِ

الجارياتِ بالماءِ البكرِ.

بالكهوفِ،

بالينابيعِ العميقةِ في الأرضِ

المكنونةٍ في عطاءاتِ الجوفِ،

بالفراغِ تحت كوكبنا الصغيرِ

تجيشُ الشعلةُ اللاهبة.

هكذا، دون محضِ اكتراثٍ،

مغطاةٌ هي الصفحةُ البيضاء.

الذهبيّ والأبيضُ،

البياضُ الأعرجُ في سعادةِ الأسلافِ.

على هذه الأرضِ

ثمّة موطنٌ لشيوخِك وللعجائزِ السعيداتِ.

إصغِ إليّ،

النصيحةُ القلقةُ الجهومةُ

مثلما من قبلُ،

بالِغُها كلّ جوّالٍ.

خلايا النحلِ تعرفُ هذا،

والشعبُ يعرفُهُ بيتُ النحلِ.

من بناهُ؟

عنايتُنا، أم خسارتُنا؟

هذا بيتُنا!

بالدربِ الطويلِ نعودُ إليهِ،

نجمّلهُ بتقاليدنا العريقةِ،

بالغنى الذي تهبُ الأرضُ الغالية.

بمقدورنا أن نضحّي بالحياةِ،

بما استطعنا نسوّي العالمَ.

بمقدورِنا نصبُ الشراكِ في الدروبِ كلّها.

لكنني أقولُ:

ادخلوا بسلامٍ

بالألفةِ الأبديّةِ مع الربّ.

ليديا كيتايفا

أنهـت معهـد مكسـيم غـوركي لـلآداب نهايـة التسـعينات، وعملـت في معهـد مكسـيم غـوركي لـلآداب العالميـة. عملـت في الصحافـة، ونـشرت فيهـا أشـعارها التـي اتسـمت بالخصوصيـة والبحـث.*

السماءُ الكالحةُ، عالقةً، تَيَبّسُ

بخطوطِ الأمطارِ الرقيقةِ.

الريحُ تهدهدُ الأغاني المطمئنةَ

حلم أيلول.

يُمْكِنُ، كما يخيّلُ، أن تجفّ الأمطارُ

بالضبابِ النديّ،

وتطمر أيلول.

الهلالُ الوليدُ،

التوّاقُ للخدائعِ

خلط ُالحُلْمِ بالواقعِ.

. . . . . .

بالأحمرِ، الشفتانِ الفاسقتانِ المترقرقتانِ

تتوقانِ للغديرِ،

كما للنبيذِ في الخمّارةِ.

هذه الليلة ُ المتخفيةُ

بالأصابعِ الرقيقةِ،

تُمسّدُ الحزنَ على الجبينِ.

نُقِعتْ رائحةُ الأوراقِ بالرطوبةِ،

والفضاءُ يوسوسُ بالإثمِ اللذيذِ.

وأنا الوحيدةُ

بالرحمةِ المكفهرّةِ،

هل يحقّ لي أن أحلمَ بأحدٍ ما؟

الليلةُ - الملكةُ

باليدِ الغافلةِ، بلطخةِ البدرِ

تزيّنُ الطمأنينةُ

. . . . . .

وأنا وحدي، الليلة

بالريحِ والرقّةِ

تدورُ بقلبي،

وبالهياجِ المجنون.

. . . . . .

كلّ شيء قيلَ. دوني.

أنا لم أقلْ كلّ شيء.

قالوا عن الكائناتِ طرّاً،

عن البحرِ في كنفِ ظلالِ الأقمارِ،

عن الحبّ الغلّابِ،

عن الحزنِ المزمنِ،

عن عواصفِ الثلجِ، عن النارِ،

عن الربّ، عن الرمادِ،

لكنهم غفلوا عني فحسبُ.

......

اصغِ،

الهدوءُ أيضاً يضُجُّ،

وحدَهُ الصمتُ أغلى من الكلماتِ،

المباركُ - من يكتبُ،

السعيدُ – من يصمتُ،

للسكونِ أيضاً رنينٌ فريدٌ.

يلينا سوليما

اشـتهرت منـذ مطلـع التسـعينيات، وعرفـت بنشـاطها الثقـافي الواسـع. حـازت عـلى جوائـز أدبيـة، وعـرف عنهـا أنهـا لم تنتسـب لأي مـن الأحـزاب السياسـية.

- 1

وفي الطيرانِ يميعُ السقوطُ

لمَ، في التحليقِ، أبكي.

أنا التي هبطتُ إلى الأرضِ

أبعدَ من سقوطٍ لا نهائيّ.

ارتميتُ، بشظايا الكونِ،

بَرَقْتُ على القنطرة.

وقمتُ. سمّوني يلينا

وكنتُ من قبلُ أسمّى نجمةً.

. . . . . .

ولسوف أسلّمُ

بالليلةِ المقروءةِ بالنجومِ،

بالفكرةِ البكرِ:

في التحليقِ يميعُ السقوطُ

إذْ أهوي

ألقى الأرض،

وأحسّ

الريحُ الكونيّةُ تتنزّهُ على القنطرة.

كم عسيرٌ عليّ

أن أحترقَ مثل يلينا كي أومضَ كنجمةٍ.

- 2

أنامُ وأحلمُ أن يأخذني الحلمُ.

الطائرُ الأخرسُ

بالصمتِ المحمومِ،

يحدّقُ في عينيّ.

ولعلّي أسلو،

لعلّي أسعى خلف الطائرِ في تحليقِهِ.

وفي الليلةِ الظلماءِ أضيعُ

أُلَفُّ بريش الأزليّةِ المكينِ

ثمّ أتحجّرُ،

أصبحُ بكماءَ،

ولا أتجرّأ أن أتلاشى.

......

الطائرُ الأخرسُ يحدّقُ في عينيّ

بي توقٌ أن أتوحّدَ به

وأحلم أني أنامُ،

لكنّ ُالحُلْمَ لا يأخذني،

وقد وهنَ النبض بقلبي تماماً.

أخاف أن أتشظى.

سفيتلانا كورتشيفينا

بـدأت بالنـشر مبكـراً، ووجـدت أشـعارها صـدى لائقـاً في تسـعينيات القـرن المـاضي، تميـزت بتقديمهـا حساسـية خصوصيـة للعلاقـة مـع العـالم تمـازج بـين الـذات المنكـسرة وقدرتهـا عـلى الخلـق.

- 1

ما لخيوطِ العنكبوتِ تصبح ذهبيةً:

أنا

لستُ من أيّ مكانٍ،

أنا من الضوءِ.

وأنا منذورةٌ لأظلّ عزباءَ

الأحاسيسُ غافيةٌ،

والجسدُ أخرسُ.

......

لعبةُ الظلالِ على الستائرِ،

مسرحُ الكائناتِ،

الجداريّةُ السريّةُ،

تحفظُ الحبّ

بدفء الأيّامِ المودّعاتِ.

لستُ من أيّ أرضٍ

أنا في كلّ أرضٍ.

أيّتها النجماتُ المحترقاتُ بالأثرِ الوضّاءِ!

أنا معكنّ

لكنني لستُ هنا.

- 2

يُتاقُ للبردِ،

ونحن نعيشُ في أيلول.

المعطفُ ما زالَ في مكانه،

والشَمّامُ تقطّر بالعصيرِ الناضجِ،

وفي الفناءِ

الجنائنُ تفوحُ بالعسل.

ذاب الصقيعُ،

الجليدُ المتغضّنُ،

عندما، وقد نسيتُ الوقتَ المديدَ،

ذابتِ الشفتان بالقبلةِ الطويلة

تحت رفيفِ قلبينِ زال تجمّدهما.

. . . . . .

بيتي في الأصقاع هناك،

حيث صريرُ الزمهريرِ،

حيث العواصفُ

تشدو، طيلة الليل، بالأغاني

الأغاني ذاتها التائقةُ للانعتاق.

حلمي الأبيض - سريري غير المكدّرِ،

حلمي الأسودُ - حديثُ الوداع.

ليف بولدوف

مـن مواليـد موسـكو 17 يوليـو 1969. عمـل في الصحافـة، وأصـدر «وجـه» عـام 1993، و «مـع الوقـت في الظـلال» عـام 1997، ولاقـى شـهرة ملحوظـة، وحـاز عـلى جوائـز أدبيـة.

كوني«مارغاريتي»

نظراتُكِ، مثل زهورِها، صفراء.

الوِحدةُ، في بيتيَ الأصفرِ، تجترّني.

ثقي بجنونِ المُلهَمِ

في عصرنا هذا

وحده المجنونُ لا يعتريه الكذبُ.

حينما يدوّي بروحي تيّارُ الهواءِ،

عاصفةُ الثلجِ

كوني مارغاريتي

حارسةَ الموقدِ،

في ركامِ أوراقي التي يقلّبها المِسعرُ.

كوني مارغاريتي.

. . . . . .

أعرفُ، كالهشيمِ، تحترقُ

حينما تندلعُ النار في جسمكِ

من قدمَيْ ثوبِ سهرتكِ الأنيقِ

في الساعة ذاتِها

عندما تحومُ ظلالُ الشياطينِ فوق موسكو.

ما غوايةُ الضوءِ لنا.

الضوء الذي يلفحُ الأجنحةَ فحسبُ.

تحليقُنا المُسهِبُ

مرغريتا

تحيا الظلماتُ!

الظلماتُ التي تشتبكُ الأرواح فيها،

الأرواحُ التي فرّتْ من الأجساد.

أنظري،

احترقَ القمرُ

عيناً صفراءَ متأرجحة.

تطوّى القطّ على الكرسيّ

على رؤوس الأشهادِ،

كشيطانٍ.

كوني مرغريتا. مارغاريتي.

أنا أحتاجكِ كالغفران.

أوليغ ستاليروف

مواليـد 6 ديسـمبر 1965. أنهـى معهـد مكسـيم غـوركي لـلآداب عـام 1995. مـن أهـم دواوينـه «تواطـؤ» عـام 1995، و «الشـمس عموديـة» عـام 1997.

- 1

على هذه الأرضِ

نحنُ ضيوفٌ فحسبُ.

ذرّاتُ رمادِ النجومِ، نحنُ

سوفَ نُذرّى حين تُقرعُ الأجراسُ.

ولكي نذكُرَ عنّا

أنّنا، في وقتٍ ما، كنّا

سوفَ تشتعلُ الآنَ، بالسُكونِ المُهيب، نجمةً

نجمةً واحدةً لكلّ منّا.

وليكنْ أن تضيء النجومُ الطريقَ الطويلةَ

منتصفَ الليلةِ العمياء.

وليكنْ لنورِها الواهنِ، الضئيل، أن يدفّئ القلوبَ،

فَموسيقا الحبّ الأبديّة قد نفذَت في هذا القرنِ القاسي.

وأنا أدعو لكم أن تعبروا الطريقَ الرجيمَ إلى نهاياتِهِ.

سيحلّ وقتٌ، يا أصدقائي، ليشغلَ كلّ منكم مكانَهُ في السماءِ،

والشعاعُ الرحيمُ، النظيفُ الذي يسحّ منكم مفتوحٌ للآخرين.

لن يضيقَ على أحدٍ مكانهُ في السماء إلى أبد الآبدينَ

حين نوحّد كلّ القلوبِ بالضوءِ الوحيدَ، الأوحدِ.

1996-2-25

- 2

رجعَ الثلجُ. الثلجُ الكتيمُ

شاحبٌ، أبيضُ

لا شيء، لا شيء أنصعَ منهُ.

هل ترى؟

الأزقّةُ عاريةً

تحتَ أوراقِ الأشجارِ المتجمّدة.

ومن وراءِ الضبابِ تحدّقُ قلعةٌ بطرس

واضحةً مثل كلمةٍ في البدءِ

فيما الأهراماتُ العتيقةُ

المتخفّاةُ

لا ترى من هنا. يا للقسوة!.

1992

- 3

يمضي القرنُ، خلف آثارِ سطورٍ بوشكين،

العشرونَ..

ولا أحدٌ مُسّ بنسيانها.

-آه، ألكسندر سيرغييفتش*

لو أني كنتُ التقيتُكَ

لا بدّ أني تغيّرتُ، وأضاءت عاداتُ خطواتي.

بي ثقةٌ لا تحدّ

أنّنا معاً، كنّا تجرّأنا على تأويلِ أشياءَ شتّى،

لا عبثاً، على كأس نبيذٍ.

ولعلّ، لقاءنا التأمَ في أبريل،

أو في يونيو،

لا فرقَ. لم يبدُ التاريخُ لي.

- يا للروعة!

كنتُ قلتُ لكَ، بعدَ تبادلِ التحيّاتِ الطيّباتَ،

لأن اللقاءَ حلّ.

- لماذا كلّ هذا عن التراتيلِ؟

لا بدّ أنكَ امتعضتَ، بتواضعكَ المعهود.

قل ببراءةِ المعنى:

- كيفَ يعيشُ الشعراءُ اليوم؟

عمّا يكتبون؟ ما الذي يتنفسّون؟

هل يرتفعون، على من سواهم، درجاتٍ؟

- آه، ألكسندر سرغييفتش!

الحسدُ البغيضُ، مثل الفرسِ المجنّح، السيّدُ،

والفراغُ المُقيتُ يطبقُ على الأرجاءِ كلّها.

قبائلٌ متناثرةٌ من المقامرينَ

الذين، لا شأنَ لهم، بأعرافِ الشرف.

- أما الشعراءُ، الشعراءُ الخلّاقون

الذين يُبعثونَ في الكلمةِ فرادى،

شهداءُ،

- هل تستقيمُ الحياةُ بهذا؟

بالمكرِ الحاذقِ، يسألُ بوشكين،

ويُصابُ بحزنٍ لا شفاء منهُ.

- ليس هكذا! أعترفُ الآنَ بما أصدّقُ

عرضتُ عليكَ التوحّدَ

هل كان يمكن أن يُقتلَ الناس على فكرتهمْ .

لن أقدّمكَ اليومَ لهذه الكائناتِ.

آه، ألكسندر سيرغيفتش!

أحكمْ بالقسطِ

لم نعدْ بشراً عاديينَ

لا أنتَ،

ولا أنا.

يا للأسفِ الفتّاك! .

1996-6-6

*المخاطَب هو الكسندر بوشكين. وفي التقاليد الروسية يخاطب الشخص باسمه وباسم أبيه، وبصيغة الجمع. لكنني آليت أن أترجم صيغة الجمع في خطاب الشاعر لبوشكين بصيغة المفرد مقاربة لصيغة التخاطب في اللغة العربية.

عبدالله عيسى

*- مواليد 15يناير عام 1964 في مخيم ببيلا للاجئين في ريف دمشق.

*- حصل على الماجستير من معهد مكسيم غوركي للآداب عام 1995.

*- حاز على شهادة الدكتوراة في الآداب من جامعة موسكو المركزية - معهد آداب آسيا وأفريقيا عام 1999.

*- حصل على عدة جوائز وشهادات تقدير، كان آخرها:

- اختاره صندوق الأدب العالمي شخصية العام 2015 في «حوار الحضارات والتقريب بين الثقافات».

- منحه الرئيس الفلسطيني محمود عباس وسام الثقافة والعلوم والفنون –مستوى الابتكار. عام 2015.

- كما تم اختياره شهر يونيو 2017 ضيفاً، من بين ثلاثة شعراء حول العالم إلى جانب التايواني تزيمن تساي والبولندية ليزا سيجيت، في كتاب «عام الشاعر» الذي صدر بالإنكليزية في الولايات المتحدة عن دار نشر إينر تشايلد الذي يشغل منصب مديرها التنفيذي الشاعر ويليام بيترز.

- حصل على وسام تشيخوف الإبداعي لعام 2017

- قدّم إلى الروسية إبداعات شعراء فلسطينيين وعرب من أبرزهم: محمود درويش، بدر شاكر السياب، أدونيس، محمد بنيس، وعبد الرحمن الأبنودي، وسواهم.

*من أهم أعماله:

1- هزيع. شعر. بالروسية. 1995.

2- آلاء – شعر – دمشق 1996. الرباط 1998.

3- موتى يعدون الجنازة – شعر. وزارة الثقافة دمشق 1989، وطبعة المغرب 1989.

4- حبر سماء أولى – شعر. الرباط 1998.

5- قيامة الأسوار – شعر رام الله 2000.

6- رعاة السماء، رعاة الدفلى – شعر. دار الدوسري – البحرين وليان - القاهرة 2013

7- أخوتي يا أبي، لا الذئب. شعر. (طبعة الكترونية). غزة. مركز الصداقة الثقافي. 2014.

8- وصايا فوزية الحسن العشر. القاهرة. دار ابن رشد. 1917

في النقد:

1- رؤيا – مقدمة نقدية – دمشق 1996، الرباط 1998.

2- الكلمة والروح في الشعرية المعاصرة. القاهرة 2018.

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

رقمنة
مشروع النشر الرقمي